اقرأ

فتحي أبو الفضل

حافية على الشوك

عدد ممتاز



اقرأ

تصدر أول كل شهر

[٤١٤] أغسطس ـ ١٩٨٢

رئيس التحرير أنيس منصور

فتحي أبو الفضل



الرواية الحائزة على جائزة الدولة للرواية
عام ١٩٧٧

(الطبعة الثانية)



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أستاذ أجيال متعاقبة غرس فى نفوس أفرادها بعلمه وفنه وأدبه وأستاذيته شيئا اسمه « الحس الإذاعى » ، عندما يقف الواحد منهم خلف الميكرفون ليخاطب الملايين ، ومخاطبة الملايين مسئولية ثقيلة ضخمة يحزننى ويحزن كل من يقدر ثقلها وضخامتها أن يراها – أعنى هذه المسئولية – قد ذابت ، فتلاشت من وجدان ونفوس الغالبية الغالبة من العاملين فى أخطر جهاز فى أية دولة ولا أقول فى مصر وحسب .

إلى أستاذ كبير عالم بأسرار هذا العلم الذى وهبه نفسه وذاته وحياته جميعا – الإذاعة – وقد قدم كل هذا إلى أجيال متعاقبة من تلامذته – بالألوف – فى عطاء بار كريم سخى ، فلم يبخل على أيهم يوما بالمعرفة والتوجيه ..

إلى عبد الحميد الحديدى .

أول وآخر رئيس لمجلس إدارة إذاعة مصر

إليه ، ضيفاً عزيزاً غالياً على الكوكب الأعلى – الجنة – التى وعد الله بها الأخيار من عباده .

حبا ووفاء وعرفانًا ، بلا حدود .

فتحي أبو الفضل

دار الأهرام – القاهرة

تحية خاصة

إلى من قطعت رحلتها إلى أوربا ، وهى على سلم الطائرة — التى كان مقرراً أن تقلع بها من مطار القاهرة — عندما علمت بمرضى ، فهبطت أرض المطار ، ومنها إلى المستشفى حيث كنت أرقد بين الحياة والموت ، لتظل إلى جانبي أسابيع متعاقبة ، إلى أن اطمأنت إلى اجتيازى الخيط الرفيع بين الموت والحياة . .

إلى الفلاحة المصرية التى لم تنس تراب قريتها ، « الإبراهيمية » — شرقية ، وهى فى قلب كل عاصمة من عواصم الدنيا . . .

إلى الصديقة الوفية ، التى جاوز وفاؤها كل مألوف . .

إلى كريمة . .

تحية خاصة من . . « حافية على الشوك » !

فتحي

١

« أسابيع ثلاثة تنقضى اليوم على ما جرى لى من هول . .

« الأسابيع الثلاثة هذه ، عشتها بإحساس واحد لا يتغير . . إحساس من يهوى من حالق . .

« من ارتفاع شاهق ، شاهق ، شاهق يقاس بُعْده عن الأرض – فى تقديرى – بآلاف السنوات الضوئية ، فظللت أعانى – وما أزال – فظاعة هذا الإحساس المروع . . إحساس السقوط من هذا الارتفاع الشاهق ، الشاهق ، الشاهق ، وسرعة السقوط تتزايد وتتضاعف ، وتتزايد وتتضاعف لتتساوى بسرعة الصاروخ . . لا أدرى متى أرتطم بالأرض لأتخلص من هذا الفزع المخيف ، وأنا أهوى بين متاهات الفضاء اللانهائى ، وإن كنت أعلم أننى لن أصل إلى الأرض – إذا وصلت – إلا ذرات متناثرة من اللحم المحترق والعظام المتفحمة !

« حسبى أن أنتهى من عذابى هذا على أية صورة ، حتى لو كانت النهاية على هذا النحو المفجع الأليم . .

« حياة وآخرها الموت .

« وهل يعيش إنسان إلى الأبد ؟

« أو هل نموت مرتين ؟

« هى ميتة واحدة يا صفاء !

« نموت اليوم ، أوغداً ، أو بعد أعوام . .
« ونموت فجأة ، أو بعد مرض طويل أوقصير . .
« ونموت إثر حادث ، أوفى معركة ، أونتيجة جراحة أواختناق أو تسمم . .
« ونموت حرقاً فى طائرة ،أو غرقاً فى محيط ، أوشنقاً تنفيذاً لعقوبة ، أو تحت أنقاض منزل يتداعى فوق رؤوسنا . .
« تتعدد الوسائل والموت واحد ، أو كما يقولون : « تعددت الأسباب والموت واحد » . . وهو الحقيقة المؤكدة ، والنهاية المحتومة لكل كائن حى . .
« فأية غرابة فى أن أموت يا صفاء ؟ !
« أى جديد وأى بأس فى أن أموت وأنتهى ؟ »
وماتت الكلمات على شفتى عصمت ، وقد تحولت دمعتان فى عينيها الرماديتين إلى حبّتين من اللؤلؤ ، وكأنهما تأبيان الفرار منهما لتنسابا على وجنتيها اللتين أذبلهما الحزن والهم والانكسار ثلاثة أسابيع متصلة . .
كان واضحاً من شحوبها الحزين أنها لم يغمض لهما جفن حقيقة ، خلال هذه الأسابيع الثلاثة التى انقضت .

* * *

وطال الصمت بين الصديقين إلى أن قالت صفاء :
ــ عصمت . . يجب أن تبلغى النيابة .
ــ النيابة ؟ ! !
ــ إنها جهة الاختصاص .
ــ فى حياتى كلها ما وقفت مرة ، أوجلست ، أمام وكيل نيابة ، أو

ضابط شرطة . . فى حياتى كلها ، مادخلت مرة من باب يؤدى إلى حجرة تحقيق .

–آن لك أن تدقى باب غرفة وكيل النائب العام ، لتدخلى عليه ، ولتحكي له القصة كلها ، وكاتب التحقيق يدوّن ما تنفرج عنه شفتاك ، كلمة بكلمة .

– يا مصيبتى ! ! . . نيابة ؟ !

قالتها عصمت فى صوت هامس تخنقه الدموع ، ولكن صديقتها صفاء أمسكت بذراعها برفق ، وهى تقول :

– المصيبةُ فيا جرى ياعصمت ، والعدالة يجب أن تأخذ مجراها . . والنيابة خطوتك الأولى نحو تحقيق هذه العدالة .

– ووالدتى ؟

– تذهب معك .

– يعنى . . أعترف لها ؟

– بكل شيء . . فأنت مجنيّ عليك ، لا جانية . . خالك أحمد رجل عاقل ، وهو صديق لك أكثر منه شقيقاً لوالدتك ، وهو واسع الأفق ، سليم الإدراك ، وسيقدر كل شيء عندما تدعوه والدتك ليصحبك إلى دار النيابة ، بعد أن تروى له كل شيء .

– هل هذا هو الحل الوحيد كما تعتقدين ؟

– هل لديك غيره ؟

– أنا لست دارية بنفسي يا صفاء . . لقد أدركت – خلال هذه الأسابيع الثلاثة التى انقضت – معنى حالة انعدام الوزن ، التى نقرأ

عنها منذ اقتحم الإنسان الفضاء . . إننى أعيش حقيقة فى حالة انعدام الوزن بصورة مستمرة .

ـ أستأذنك فى أن تتركى لى مهمة إطلاع والدتك على كل شىء .

هتفت عصمت بسرعة :

ليتك تفعلين يا صفاء !

ـ وفيمَ التمنى ؟ . . أنت منى فى مكانة الأخت العزيزة الغالية ، ووالدتك فى مكانة الأم منى . . سأقوم لزيارتها وأروى لها كل شىء . . ولنتفق من الآن على أنك تعلمين أننى سأخاطبها فى هذا الشأن . . أى أن إحساسك بالحرج والخجل البالغين ، هو ما دفعك لأن تنيبينى عنك للقيام بهذه المهمة .

ـ شكراً يا صفاء .

ـ سنتوجه معاً الآن ، وسأنفرد بها قليلاً ، بينما تتشاغلين أنت فى عمل أى شىء ، إلى أن أفرغ أنا من إطلاعها على القصة ، ثم نجتمع ثلاثتنا ونتفق على الخطوة التالية !

٢

إلى جانب خالها أحمد ، جلست عصمت أمام وكيل النائب العام ، الذى فتح محضراً ليسجل أقوالها كلمة بكلمة . .

ـ اسمى عصمت مرتضى ، ابنة المرحوم أمين مرتضى المحامى . . فى الثلاثين من هذا الشهر ، أبلغ الرابعة والعشرين من عمرى .

وكان كاتب التحقيق يدوّن كل ما تقوله عصمت ، التى توقفت

قليلاً عن الحديث ، وسألت وكيل النائب العام بصوت مرتجف ، إن كان من المتيسر أن يأمر لها بكوب ماء ، فأجابها النائب من فوره :

ــ بكل تأكيد . . أطلبي ماشئت يا آنسة عصمت . . يستطيع الأستاذ أحمد كذلك أن يطلب ما يشاء .

وأمر الحاجب بإحضار قدحي قهوة مع ماء مثلوج . . واستأنفت عصمت الحديث :

ــ فى اليوم الثالث من هذا الشهر . . أذكر أنه كان يوم سبت . . .

ــ أى منذ نحو ثلاثة أسابيع .

ــ بارحت منزل أسرتى ، بشارع الدكتور محمد مصدق بالدقى ، قاصدة مستشفى « دار الشفاء » بشارع رمسيس ، لزيارة صديقة لى أجريت لها جراحة دقيقة . . .

ــ وبعد ؟ . .

ــ انتظرت إحدى سيارات « التاكسى » قرابة عشر دقائق دون جدوى . . .

ــ إنها أصبحت مشكلة .

ــ فقلت لنفسى ، أوقالت لى نفسى ، أن أمشى قليلاً لعلى أجد إحدى هذه السيارات مقبلة من أى شارع جانبى ، فأستقلها إلى وجهتى .

ــ فمشيت . .

ــ وكلما مرت بى سيارة حاولت أن أستوقفها ، ولكنى كنت أمام حالتين لا تتغيران : فالسيارة إما مشغولة براكبيها ، أوخالية ! ولكن السائق لا يقف ، وكأنه لا يرى من يستوقفه ليحمله إلى حيث يريد . .

ــ حالة محيرة بطبيعة الحال .

ــ وانقضت خمسون دقيقة . . .

ــ خمسون دقيقة ! !

ــ أرجو أن أكررها مؤكدة . . انقضت خمسون دقيقة كاملة ، وأنا أنتظر سيارة تحملنى إلى المستشفى دون جدوى ، واكتشفت أن الوقت يسرقنى ، والشمس بدأت زحفها نحو الغروب ، ولو انتظرت خمسين دقيقة أخرى ، ما وصلت المستشفى إلا والظلام قد أقبل .

ــ فكرت فى العودة إلى المنزل

ــ هذا صحيح . . ولكنى لم أكد أستدير عائدة ، حتى وقفت بالقرب منى سيارة فاخرة ، فتح قائدها بابها بهدوء ، وهو يقول لى فى صوت مهذب ، وفى لهجة أكثر تهذيباً : « الآنسة لو سمحت لى بحملها إلى حيث هى ذاهبة ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً تمنحنى إياه » !

ــ شكراً ، ولكنى . .

ــ ولكنك ماذا ؟ . . إن العثور على تاكسى فى هذه المنطقة – وفى هذا الشارع بالذات – يعتبر حدثاً لا ينقصه إلا أن ينشر فى الصحف ، ولاشك فى أنك أمضيت مالايقل عن نصف ساعة تنتظرين . .

ــ فى الحقيقة ، أمضيت خمسين دقيقة .

ــ إذن أرجو أن تمنحينى شرف حملك إلى حيث تريدين . . إننى جارك فى هذا الشارع . . ، إذا كنت من ساكنيه .

ــ إننى أسكن هذا الشارع .

ــ نحن جيران إذن . . اسمحى لى أن أقدم لك نفسى ، حتى لا تكونى على جهل بمن تركبين سيارته . . أنا « عبد الحميد لطفى » ، مزارع . .

درست الحقوق ، هذا صحيح ، ولكنى تفرغت لزراعة أرضى فى طريق الأهرام . . أزرعها كلها فاكهة بدلاً من متاعب المحاماة أو أسر الوظيفة . . تفضلى يا آنستى . . تفضلى

وترددت . . حقيقة ترددت فى بادئ الأمر وأحس هو بترددى فعاد يقول :

ـ آنستى . . إن لى شقيقات وبنات شقيقات بعضهن فى مثل سنك ، فأرجو منك ألا تجرحى أخاً أكبر أو خالاً بظنة سوء ، وبعد . . فإنك لست طفلة . . وبيتى – أعنى بيت أسرتى – يقوم على رأس هذا الشارع وسأريك إياه مشيراً إليه عندما نمر به الآن . . ربما تعرفت والدتك بوالدتى ، أو تعرفت أنت ببنات شقيقاتى وتبادلتن الزيارات جميعاً ، وأصبحت أسرتانا أسرة واحدة . .

ـ فى الحقيقة ، أنا فى عجالة فإن صديقة عزيزة لى ترقد فى مستشفى « دار الشفاء » ، وكنت أرجو زيارتها قبل أن يقبل المساء .

ـ تقولين مستشفى « دار الشفاء » ؟

ـ نعم .

ـ يعنى فى سكتى ، لأننى ذاهب إلى مصر الجديدة . . تفضلى واركبى ، أرجوك . . تفضلى .

وصعدت ، وجلست إلى جانبه . وانطلق بالسيارة فى سرعة عادية توحى بالرزانة والاتزان ، والمهارة وحسن القيادة .

وعند أول شارع الدكتور مصدق ، أشار بأصبعه إلى المبنى الكبير ، القائم على زاوية التقائه بشارع الدق ، وهو يقول :

ـ« هنا نسكن » .

وانحرف يميناً إلى شارع الدقى . .

* * *

فى الطريق ، وبعد قليل ، قال لى :

ـ مارأيك فى الآتى ؟ . . سأتركك عند مستشفى « دار الشفاء » لزيارة صديقتك ، وأتم أنا رحلتى إلى مصر الجديدة ، وفى عودتى – بعد قضاء مهمتى هناك – سأمر لآخذك من المستشفى ، لأعود بك إلى منزل أسرتك ، فإن العثور على « تاكسى » فى شارع رمسيس ، وفى منطقة مستشفى « دار الشفاء » بالذات ، وبعد نحو ساعتين من الآن ، مسألة لا أقول شبه مستحيلة ، لأنها مستحيلة حقيقة . . ولنتفق من الآن على ساعة معينة ، أعود لك عند حلولها.

ولكنى شكرت له هذا ، معتذرة بأننى سألتقى – حتماً – ببضع صديقات يزرن صديقتنا المريضة فى المستشفى ، ومن الطبيعى أن نعود معاً .

فأجابنى بأدب مفرط :

ـ كما يتراءى لك ، مادامت راحتك فى هذا .

كان مهذباً عالى التهذيب . . مؤدباً مفرط الأدب ، يركب سيارة فاخرة ، ويرتدى ثياباً فاخرة ، ويتضوع منه عطر جذاب جميل . . « ابن ناس » ، كما يقولون . . ولم يكن شاباً نزقاً ممن يطيلون شعورهم ، ويقودون السيارات بسرعة مخيفة ، ويملأون الجو زعيقاً بآلات التنبيه ، كما هى القاعدة الآن . بالعكس ، فقد كان واضحاً أنه تعدى الثلاثين . . أستطيع أن أقول إنه فى نحو الخامسة والثلاثين ، يبدو محترماً عاقلاً

رزيناً . . وكانت عقود ياسمين نضرة تتدلى من المرآة الصغيرة المثبّتة أمامه ليرى فى صقالها الطريق خلفه . . وسقطت على ركبتى زهرة من هذه الأزهار ، فالتقطتها وقربتها من أنفى أستنشق شذاها العبق ، فنظر نحوى وهو يسألنى :

ـ أتحبين عطر الياسمين ؟

ـ أحب العطور الجميلة عموماً . . والياسمين بالذات ، أحب عطره .

أجابنى وابتسامة هادئة على وجهه ، بينما عيناه على الطريق :

ـ أنا أيضاً ضعيف جدّاً أمام العطور الجميلة ، ولا أبخل بأى مال ثمناً لقارورة عطر يعجبنى .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قال بعدها وعيناه لا تزالان على الطريق ، دون أن ينظر لى :

ـ فى مرة ، دفعت مائة وخمسين جنيهاً استرلينيًّا ثمناً لزجاجة عطر اشتريتها من « پيير بالمان » فى پاريس .

ولا أنكر أن الرقم استثارنى ، فسألته :

ـ يا خبر ! . . مائة وخمسون جنيها ثمناً لزجاجة عطر ! ! . . لاشك فى أنه شيء رائع . . غير عادى .

اتسعت ابتسامته ، وهو يقول :

ـ لك أن تحكمى بنفسك .

وأخرج من جيبه منديلاً أبيض ناصعاً – وكنا قد اقتربنا من ميدان الجلاء – وقرب المنديل من أنفى ، وهو يقول :

شمّى لتحكمى بنفسك إن كان يساوى المائة والخمسين جنيهاً

أولا يستحقها .

وأعترف أن العطر كان شيئاً ساحراً ، لاعهد لى به ، فاستنشقته بعمق . . ثم بعمق أكثر ، فأكثر ، فأكثر ، وهو يقول لى :

ـ ما رأيك ؟

ولما حاولت أن أجيبه ، أحسست بلسانى أثقل من أن أحركه .

كل ما أذكره أن صوته كان يصل إلى مسمعى كأنه آت من مكان بعيد ، بعيد ، ومن خلال ضباب ، وهو يقول :

ـ شمّى . . شمّى بعمق . . بعمق أكثر . . أكثر . . أكثر . .

ولم أعد أدرى بشئ !

* * *

لا أدرى كم من الوقت مرّ على قبل أن أفيق من الغيبوبة ، لأجد نفسى راقدة شبه عارية ، فى فراش لا عهد لى به . .

واكتشفت على الفور فظاعة ما جرى لى . . .

صرخت . . .

قاومت ضعفى وذلى وعارى ، وتغلبت على آثار الإغماء الذى عشته نحواً من ساعة ، وقمت من مكانى لأجد هذا الشيطان جالساً على مقعد قريب من الفراش ، وهو ينظر لى ، وابتسامة ثعبان ترتسم على وجهه . . إذا استطاع الثعبان أن يبتسم !

دخلت فى ثيابى بسرعة ، واتجهت نحوه ، ونظرت له نظرة جمعت احتقار الدنيا بأسرها . . لو كان فى نظرات الاحتقار ما يقتل إنساناً ، لمات هذا الشقى ألف مرة ، وعيناى تلعنانه وتبصقان ما ضمنته قواميس

العالم بكل لغاته من كلمات الاحتقار .

ورفعت يمينى بقدر ما استطعت ، وهويت بكفى على صدغه القبيح بلطمة خيل إلى أنها ستلقيه أرضاً . . ولكنه تلقى اللطمة فى هدوء ، وابتسم لى ابتسامة صفراء ، وهو يقول :

ــ إننى لا أستحق منك هذه المعاملة الخشنة .

بصقت على وجهه وأنا أصرخ :

ــ أنت نذل . . أنت جبان . . أنت حقير . . أنت أحقر من صرصور ، وأقبح من برص ، وأقذر من خنزير . . أنت أحقر وأقبح وأقذر من كافة الحشرات والهوام التى خلقها الله فى هذا العالم ، دون أن نصل إلى حكمته من خلقها .

وبدا عليه أنه بدأ يتململ . . فى ظنى أنه لم يكن يتصور أننى سأهاجمه بكل هذا العنف ، فغاضت الابتسامة الصفراء فجأة من قسمات وجهه ، وقال لى فى برود :

هل انتهيت من سبابك ؟

السباب لن يشفى غليلى منك ، بعد أن سطوت على ما لا يُعاد ولا يُسترد . . ولكنى سأسجنك . . أتسمع ما أقول ؟ سأسجنك . . سأجعلك من أرباب السوابق ، وسيهدر عتاة المجرمين رجولتك عشرات المرات كل ليلة ، كما نسمع عن عالم الليل فى عنابر السجون . . وإلى أن يجىء يوم الإفراج عنك بعد قضاء مدة السجن ، ستجد نفسك بقايا مخلوق ، ولا أقول بقايا رجل ، لأنك لم تكن رجلاً يوماً ما . . وسترى فى أخواتك وفى بنات أخواتك مثل ما فعلت بى الليلة ، فلن تعْدم واحدة منهن نذلاً

مثلك يفعل بها ما فعلت بى ، يا عديم الرجولة والمروءة والشرف !

وقام عن مقعده فى هدوء وهو يقول :

ــ تفضلى لأحملك إلى حيث تريدين .

ــ أأركب معك ثانية ؟ ! !

قلتها وأنا أبصق على الأرض . . .

ــ إننى أتصرف تصرف المهذبين ، إذ لا يليق أن أتركك تنتظرين سيارة لا يعلم إلا الله متى يمكنك العثور عليها ، ونحن فى منطقة شبه معزولة عن زحام العمران .

وتناولت حقيبة يدى ، وبصقت على وجهه مرة ثانية ، وخرجت من الغرفة إلى ردهة المسكن متجهة إلى بابه ففتحته . . واكتشفت أنها « ڤيلا » تحيطها حديقة كثيفة الأشجار . . ولم يكد البواب يرانى حتى وقف رافعاً يده بالتحية ، فمضيت خارجة دون أن أنظر إليه .

سيارته كانت واقفة أمام الباب ، فالتقطت رقمها ودونته ، ورحت أبتعد .

* * *

لم أكن أعرف أين موقعى من القاهرة ، وفى أى أحيائها أقف هذه الوقفة الجريحة الذليلة . .

الليل أقبل ، ومصابيح الشارع أضيئت فأضاءت أمامى الطريق التى تظللها الأشجار من الجانبين ، فمنحنى الضوء بعض الطمأنينة . . ولكنى أحسست بساقى تتخاذلان وترتجفان عجزاً عن حملى .

صفير حاد أخذ يخترق أذنى ، ويدق جوانب رأسى . . والمرئيات أمامى

تدور وتراقص ، كما لو دبت فيها الحياة بمعجزة !

أحسست بعيني تغيمان . . بغثيان . . برغبة فى القىء . . ولكنى تحاملت على نفسي ، وشهقت شهيقاً طويلاً فملأت صدرى بالهواء ثم زفرته ببطء . وظللت أسير وقد أبطأت من سرعتى ، حتى بلغت الشارع العام.

السيارات ، والمركبات ، وعربات النقل ، والدراجات ، والدكاكين ، والأضواء ، والحركة ، والحياة فى مختلف صورها ، فى شارع يموج بالألوف . . واكتشفت أننى فى أطراف مدينة المهندسين .

الغريب أننى شاهدت سيارة من سيارات الأجرة واقفة ، وسائقها خلف عجلة القيادة يدخن سيجارته فى هدوء ، فسألته أن يحملنى إلى البيت إن لم يكن ينتظر أحداً ، فأجابنى فى نبرة مهذبة ، وهو يلقى بقايا سيجارته : » تفضلى يا هانم ! «

وأحسست بالمرارة تملأ نفسي ، وقلبي ، ووجدانى ، وكل مسام جلدى . . أين كان هذا السائق قبل أن أركب مع ذلك الحيوان الضارى . . . هل حقًّا اسمه « عبد الحميد لطفى » كما قال لى ؟ . . من يدرى ؟

حملتنى السيارة إلى بيت أسرتى ، واعتذرت لوالدتى عن عدم استطاعتى مشاركتهم العشاء ، ودخلت غرفتى وأغلقت بابى على ، لأبدأ معاناة أرق لا عهد لى به . . انتابنى أرق عات مدمر ، لازمنى بصورة مستمرة ، حتى ليخيل لى أنه أصبح حالة مرضية . . إننى لم أنم منذ تلك الليلة حالكة السواد ، حتى هذه اللحظة . . لم أنم حقيقة ، ولقد لاحظت والدتى ما طرأ علىّ من تغيير ، كما لاحظه خالى . . وسألنى كل منهما عما بى ، فأجبت بأننى أعانى حالة أرق لا أدرى لها سبباً . . .

والتفتت عصمت إلى خالها الجالس بجانبها ، وهى تقول :

ــ خالى أحمد يتذكر هذا طبعاً .

أجاب خالها فى صوت مقهور : « طبعاً أتذكره يا ابنتى » .

سألها النائب : «ولم لم تأت إلينا فى الليلة ذاتها ، للإبلاغ عما حدث ؟ »

أطرقت عصمت قليلاً . . وهزت رأسها فى أسى ، وهى تجيب :

ــ سيادة النائب يستطيع – بلا شك – أن يدرك حال بنت مثلى ، جرى لها ما جرى لى . . فظاعة إحساسى بفداحة ما فقدت بعد الاعتداء علىّ . . الخوف . . الرعب . . خشية الفضيحة ، والتفكير فى محاولة اتقائها ، وكيف يكون هذا الاتقاء . . ثم والدتى وأهلى . . كيف يكون وقع ما حدث لى عليهم . . من أين أجد الجرأة ، وأنا فريسة كل هذه الصراعات ، على أن أحضر لمقابلتك أو لمقابلة أى زميل لك ، لأروى قصة عارى . . إننى لم أجد الشجاعة لأطلع والدتى أو خالى على ما جرى لى ، لولا أن دفعتنى صديقتى « صفاء » لأخطو هذه الخطوة . . بل إنها جنبتنى حرج الموقف المخزى الأليم ، فتولت المهمة نيابة عنى ، وقصت على والدتى القصة بحذافيرها ، ونقلتها والدتى بدورها إلى خالى ، فهو الرجل الوحيد فى أسرتنا بعد وفاة والدى . . فجاء بى إلى هنا لأقول كل شىء

سألها النائب : « هل معك رقم السيارة ؟ »

ــ هاهو ذايا سيدى : « ٦٠٦٠٦٠٦ – ملاكى جيزة »

ــ قلت إن اسمه عبد المجيد لطفى ؟

ــ عبد الحميد وليس عبد المجيد – هكذا قال لى ، ولا أعرف إن كان صادقاً أو غير صادق .

التفت النائب إلى كاتب التحقيق ، وقال له :

اكتب يا سيد رمضان . . « يتم الاتصال فوراً بقلم مرور الجيزة ، للاستفسار عن اسم صاحب السيارة (٦٠٦٠٦٠٦ – ملاكى جيزة) ، وعنوانه ، ويستدعي للحضور أمامنا غداً الاثنين ٢٦ أبريل الساعة الثانية عشرة ظهراً لاستجوابه » .

ثم استدار بمقعده إلى عصمت ، وسألها :

- أتريدين إضافة شئ آخر يا آنسة عصمت ؟

أجابته فى صوت يائس : « لقد قلت كل ما عندى » .

قدم لها قلماً ، وهو يقول : « لو سمحت ، وقعى هنا . . عند نهاية أقوالك » .

ووقعت عصمت باسمها واضحاً وكاملاً ، بينما كان وكيل النائب العام يقول لها :

- ستشرفيننا مع الأستاذ أحمد غداً ، فى الثانية عشرة ظهراً ، لمواجهتك بصاحب السيارة ، إذ من يدرى . . قد يكون شخصاً غيره . . أعنى غير من ركبت معه واعتدى عليك .

وأطرقت عصمت برأسها ، وقد صعدت الدموع إلى عينيها ، وهى تقول فى همس : « سأكون هنا فى الثانية عشرة ، ظهر غد » .

٣

فى الثانية عشرة تماماً ، ظهر اليوم التالى ، دخل « عبد الحميد » غرفة وكيل النائب العام ، ومعه شخص تبدو على وجهه سمات الجد وجهامة من أخذ الأهبة لمعركة لامفر منها .

وكانت « عصمت » تجلس قريبة من خالها « أحمد » فى جانب من الغرفة ، وبمجرد أن وقعت عيناها على غريمها ، همست فى أذن خالها : « هذا هو يا خالى » .

تقدم عبد الحميد من وكيل النيابة فى ثقة واعتزاز ، وهو يقول فى صوت هادئ :

ـ سيادة النائب ، أنا عبد الحميد لطفى ، وقد تلقيت هذا الاستدعاء للمثول أمامكم فى هذه الساعة من هذا اليوم .

رفع النائب رأسه عن الأوراق التى أمامه ، ونظر إلى عبد الحميد ، وقال له فى هدوء : « تفضل . . اجلس ! » .

وأضاف عبد الحميد ، مشيراً إلى مرافقه :

ـ وكيلى ، الأستاذ صادق الكاشف المحامى

أشار النائب إلى مقعد آخر مجاور ، وهو يقول للمحامى : « تفضل يا أستاذ صادق ! » .

وأومأ إلى « عصمت » وخالها لينتقلا إلى مقعدين قريبين من مكتبه ، فأصبح الجميع فى شبه حلقة صغيرة ، يتصدرها وكيل النائب العام ، وبجانبه كاتب النيابة ، وعن يمينه عبد الحميد ومحاميه ، وعن يساره

عصمت وخالها أحمد .

وافتتح النائب محضره ، فسأل عبد الحميد عن اسمه ، وعمله ، وعنوان مسكنه . فأجاب عن كل هذا فى هدوء غريب . . وكان أغرب ما فى هذه الإجابات جميعاً أن اسمه « عبد الحميد لطفى » حقيقة ، أى أنه لم يغير اسمه عند ما قدم نفسه لعصمت يوم أن دعاها لتركب إلى جانبه فى سيارته ، ليحملها إلى حيث كانت ذاهبة .

ثم قدم بطاقته الشخصية ، عندما سأله النائب إياها ، فأثبت هذا رقمها وتاريخ إصدارها فى المحضر ، وأعادها إليه .

وعن عنوانه أجاب بأنه يقيم فى مسكنه الخاص ، الذى بناه . . « ڤيلا » عند نهاية مدينة المهندسين ، فى شارع تم شقه حديثاً فلم يعلن اسمه بعد . . وبالتالى فإن مسكنه لم يتم ترقيمه .

وأضاف بعد لحظة صمت : « سمعت أنهم قد يطلقون اسمى على هذا الشارع ، باعتبارى أول من بنى فيه بيتاً » .

ولم يعلق النائب على عبارة عبد الحميد الأخيرة ، ولكنه وجه له سؤالاً مباشراً ، وهو يشير إلى عصمت : « هل تعرف هذه الآنسة ؟ » .

ــ إلتفت عبد الحميد إلى عصمت ، وأجاب فى براءة الأطفال :

ــ طبعاً أعرفها ، وإن كنت أجهل اسمها ، لأننا لم نلتق غير مرة واحدة ولقد قالت لى إن اسمها « فيفى » .

ــ كيف وأين ومتى التقيت بها ؟

ــ سيادة النائب ، أتأذن لى بإعادة ترتيب الإجابة عن هذه الأسئلة الثلاثة ، فأجيب أولاً عن « متى » التقيت بها ؟ . . . فأقول : منذ نحو

ثلاثة أسابيع . . ربما أكثر بيوم أو يومين . . لا أذكر !

ــ لا بأس . . . لا بأس .

ــ ثم أجيب ثانياً عن « أين » ، فأقول : فى شارع الدكتور مصدق بالدقى ، حوالى الساعة الخامسة مساء ، أو بعدها بقليل . . أما عن « كيف » التقيت بها ، فقد كنت منصرفاً فى تلك الساعة – من ذلك اليوم – من زيارة بيت الأسرة . . أعنى بيت والدتى وأخواتى . . وكنت أقود سيارتى ، وإذا بهذه الآنسة تعترض طريقى ، وهى ترفع لى إبهامها إشارة إلى أنها ترجو أن أحملها معى إلى حيث هى ذاهبة . . « موضة » جديدة تفشّت أخيراً فى شوارع القاهرة ، كما تعرف سيادتك ولاشك ! . . فتوقفت عن المسير مروءة منى ، وفتحت باب السيارة ، وقلت لها : تفضلى ، فأنا أعرف صعوبة العثور على « تاكسى » !

لم تكد عصمت تسمع هذا حتى هبّت عن مقعدها ، وهى تصرخ :

– كاذب . . كاذب . . كاذب يا سيادة النائب . . أقسم أنه كاذب !

ولم يهتز عبد الحميد لثورتها . . لم يرد بكلمة واحدة !.

محاميه هو الذى تدخل ، فقال للمحقق :

– أرجو من سيادة المحقق أن يحمى موكلى من سباب الآنسة . . إننا للآن لم نعرف لماذا استدعينا . . لماذا استدعت النيابة موكلى ؟

أشار النائب إلى « عصمت » فى هدوء لتلزم الصمت ، فعادت إلى مقعدها والإحساس بالقهر يفتك بكل خلايا جسمها . . وعاد المحقق يسأل عبد الحميد :

– ماذا حدث بعد أن ركبت إلى جانبك فى سيارتك ؟

– ما يحدث عادة بين شاب وفتاة ، التقيا فى الطريق ، على هذا النحو . أحاديث فارغة تافهة . . سألتها إلى أين ؟ فقالت إلى أى مكان . . فعدت أسألها : «هل لديك ما يمنع أن تصحبينى إلى مسكنى ؟ إنى أسكن – مدينة المهندسين – ڤيلا جميلة بنيتها حديثاً ، وهى مؤثثة بأثاث فاخر ، ولها حديقة جميلة ، وشرفة ساحرة ، جلسة واحدة فيها تطيل العمر» . . فابتسمت وهى تقول لى ، من جانب شفتيها : «أنت عفريت . . شقى» !

وهبت عصمت عن مقعدها مرة أخرى ، وهى تصرخ فى صوت أبح :

– نهار أسود . . أستغفر الله العظيم . . أستغفر الله العظيم !

وعاد المحقق يشير إليها لتجلس ، ولتلزم الهدوء . . فحطت على مقعدها وقد غص حلقها ، وشرقت عيناها بالدموع . واستأنف المحقق توجيه أسئلته إلى عبد الحميد : «وبعد ؟»

– وهل لهذا من بعد . . إلا ما هو معروف ومألوف ؟ توجهنا معاً إلى مسكنى ، وأمضينا معاً وقتاً سعيداً ، كأى شاب وفتاة ، ولما سألتها اسمها ، قالت لى : «فيفى» ، ولم تزد . . أعنى أنها لم تصرح لى باسمها الحقيقى . . . حاولت أن أعرف منها رقم «تليفونها» ، فقالت إنها تفضل أن أترك لها الاتصال بى . أخذاً بالأحوط . . ثم انصرفت معززة مكرمة .

عند هذا الحد تدخل المحامى ، فسأل المحقق :

– سيادة النائب . . موكلى – للآن – لا يعلم لماذا استدعته النيابة ! ! هل هناك أى اتهام موجه له ؟

– الآنسة عصمت تتهم الأستاذ عبد الحميد لطفى بأنه خدرها فى

السيارة – عن طريق الشم – بعد أن ركبت بجانبه ، وعندما أفاقت من غيبوبتها من تأثير المخدر ، وجدت نفسها شبه عارية فى فراشه ، وقد اعتدى عليها أبشع اعتداء . . .

ولم يكد عبد الحميد يسمع هذا الاتهام ، حتى نظر إلى عصمت والمرارة تملأ صوته ، وهو يقول :

– أهكذا يكون جزاء إحسانى إليك يا آنسة ؟ . . أتنكرين أنك سألتنى – وأنت تتأهبين لمغادرتى – عشرين جنيها ، فأعطيتك خمسين ؟ صحيح . . اتق شر من أحسنت إليه !

ولم تملك « عصمت » نفسها ، فهبت للمرة الثالثة عن مقعدها كالقذيفة ، وهى تصرخ فى شبه جنون :

– اخرس ! . . إخرس ! . . لو ملكت الآن أن أقتلك ما ترددت لحظة واحدة . . ولكنى – حتما – سأقتلك يوماً ما . ! . سأقتلك جزاء كذبك الحقير ، وافترائك الفاضح الظالم ، وجبنك الذى يزرى بأى رجل . . إن كنت من الرجال !

ولم يزد عبد الحميد عن أن يطرق ، وهو يقول :

– سيادة النائب . . أرجو حمايتى من سلاطة لسان السيدة !

واندفعت عصمت نحو المحقق وهى تبكى :

– أنا التى أطلب الحماية ياسيادة النائب . . أطلب الحماية من هذه الافتراءات ، التى يحاول بها أن يجعل منى عاهراً أو بغياً . . إنه قتلنى مرة منذ ثلاثة أسابيع ، عندما سلبنى أغلى ما أملك ، محتالاً بأخس الحيل . .واليوم يقتلنى مرات بادعاءاته الفاضحة . . .

أجابها المحقق ، وقد رسمت المرارة خطوطها على جبينه :

– آنسة عصمت . . للمدعى أن يقول ما يشاء ، وقد قلت كل ما عندك باعتبارك المدعية . . كذلك ، للمدَّعَى عليه أن يقول ما يشاء دفاعاً عن نفسه ، ولا أحد يملك أن يمنعه – وهو فى موقف الاتهام – من أن يقول كل ما عنده . . ومهمة النيابة فى النهاية أن تتقصَّى الحقيقة لتصل إليها ، فأرجو منك أن تعودى إلى مقعدك ، وأن تهدئى قليلاً !

فى هذه اللحظة تدخل المحامى ، قائلاً :

– سيادة النائب ، أرجو أن يُسمَح لى بالاطلاع على اتهام السيدة لموكلى ، فى بلاغها لسيادتكم ، لأستطيع أن أفند أقوالها ، لننتهى من هذا الموقف الذى تحاول أن تجعل منه مشكلة ولا أعتقد أنه كذلك .

قدم المحقق للمحامى أقوال عصمت ، التى أدلت بها فى اليوم السابق ، مذيَّلة بتوقيعها ، وهو يقول :

– إن ادعاءها يختلف تماماً عن أقوال المدعى عليه .

– لهذا رجوت أن أُطلع على تفاصيل هذا الادعاء .

وفى لحظات ، انتهى المحامى من الاطلاع على أقوال عصمت ، فرد المحضر للمحقق وهو يقول :

أرجو أن يُسمَح لى بتفسير قصير ، أعتقد أنه سيكون فصل الخطاب .

– تفضل !

– أرجو أن يسجل كاتب التحقيق فى المحضر كل كلمة أمليها عليه ، لأن ما سأمليه سيكون خاتمة ما لدينا من أقوال ، ردا على كل ادعاءاتها الكاذبة . . هذا إذا سمح السيد المحقق !

التفت النائب إلى كاتب التحقيق ،وأومأ لهبتسجيل ماسيمليه محامى المدعى عليه ، الذى بدأ يقول :

– المدعية السيدة عصمت أمين مرتضى تعترف فى بلاغها بأنها ركبت مع موكلى المدعى عليه بكامل رغبتها وحريتها . . ومعنى هذا أنه لم يقسرها على أن تركب معه برغمها . . .

« وهى باعترافها ، تتم الرابعة والعشرين من عمرها السعيد ، المديد إن شاء الله ، بعد أيام . . ومعنى هذا أنها بالغة سن الرشد ، يعنى راشدة وعاقلة وتملك أمر نفسها . .

« وسأتمشى معها ، وسأصدقها . . وسأفترض صدق افترائها على موكلى بأنه خدرها ، ليصحبها إلى منزله بعد أن تفقد إرادتها ، لينال منها ما تدعى أنه ناله . . إن صح هذا – كل هذا – الذى تدعيه السيدة المدعية ، فلا جريمة على موكلى ، لأن السيدة – كما قدمت – راشدة وعاقلة وتملك أمر نفسها ، ولأنها ركبت معه بمحض إرادتها ، من واقع أقوالها فى البلاغ الذى تقدمت به إلى النيابة العامة . . وهى – لكل هذا – تتحمل نتيجة تصرف البالغين الراشدين العقلاء . . وهى إن كانت جادة وصادقة فى ادعائها ، فلمَ لم تبلغ النيابة بما وقع عليها من اعتداء ، ليلة أن تم الاعتداء عليها ؟ . . أين كانت خلال هذه الأسابيع الثلاثة ، التى انقضت منذ أعتدى عليها موكلى – كما تدعى – حتى اليوم ؟

« من هنا يتبين عدم جدية التهمة التى تحاول المدعية إلصاقها بموكلى ظلما ، لتحقيق غاية فى نفسها . . ولهذا أطلب حفظ البلاغ ، والإفراج عن موكلى بلا ضمان ولا كفالة ! »

عند هذا الحد . انفض المولد ، أو السامر ، أو الندوة ، أو الاجتماع ، أو المهرجان ، أو المؤتمر . . أو أى شيء ! . . فقد انتهى التحقيق . .

انتهى التحقيق بحفظ البلاغ ، وأفرجت النيابة عن السيد « عبد الحميد لطفى » بلا كفالة ولا ضمان . . « لأن البلاغ المقدم ضده من الآنسة – أو السيدة المدعية عصمت أمين مرتضى – لا يتضمن جريمة يعاقب عليها القانون ، حيث إنها باعترافها ركبت سيارته برغبتها ، دون أى إرغام ، أو ضغط ، أو قسر ، أو تهديد . . وحيث إنها بالغة وراشدة ، وتملك أمر نفسها ، وتستطيع أن تفرق بين ما يجوز ومالا يجوز ، فإنها تتحمل نتيجة ما تقدم عليه . . وأقفل المحضر » !

وقام عبد الحميد عن مقعده ، وقام محاميه معه . .

وقامت عصمت ، كما قام خالها . .

لم يفتح أحدهم فمه بكلمة ! . . عصمت كانت الوحيدة التى تكلمت ، فسألت المحقق :

– هل هذا هو القانون يا سيادة النائب ؟

فأجابها النائب بنبرة مهذبة ، وبصوت خفيض :

– نعم يا آنسة عصمت . . إنه القانون !

رفعت عصمت رأسها ، وقد أحست بأنها تكاد تختنق . . ولكنها تمالكت أعصابها ، لتقول فى هدوء :

– مادام هذا هو القانون ، فهذا إذن حق يا سيادة النائب . . فقد ركبت سيارته برغبتى ، وبإرادتى ، وبدون أى إرغام ، أو ضغط ، أو قسر ،

أوتهديد . . وأنا بالغة وراشدة وأملك أمر نفسى ، وأستطيع أن أفرق بين ما يجوز وما لا يجوز . ولهذا يجب أن أتحمل نتيجة ما أقدمت ، أوما أقدم عليه !

٤

فى المساء ذاته ، كان عبد الحميد يجلس مع أقرب أصدقائه إليه ، فى حديقة السطح بأحد الفنادق الكبرى بالقاهرة ، يروى له تفاصيل ما جرى ظهراً فى غرفة التحقيق ، وكيف كان وقع قرار حفظ البلاغ على « عصمت » ، وإن تقبلته بهدوء غريب ، وبأعصاب من حديد . . ثم أضاف بلهجة السوقة : .

– حلوة بنت الكلب ؟ . . حلوه صحيح يا حافظ ، وكنت أتمنى ألا تثير كل ما أثارته ، حتى أظل على علاقة طويلة بها . . ولكنها صعَّدت الأمر ، فبلغت به إلى النيابة ، وهو ما يحدث لى لأول مرة ، لأنهن – جميعاً – يخفْن الفضيحة ويتقينها . .

أجابه صديقه ، وهو يرشف رشفة من كأسه :

– ربما لأنها كانت بكراً . . وسقطتها ستنكشف يوماً ما ، لا محالة . . بعكس الزوجة ، أوالمطلقة ، أو الأرملة – ، فهى تستطيع أن تبتلع غصتها فى صمت ، وأن تدارى عارها ، فلا يدرى أحد بما وقع لها !

أطلق عبد الحميد دخان سيجارته ، وهو يرد كأسه إلى سطح المائدة ، قائلاً لصديقه :

– لا ياحافظ . . هذه البنت – عصمت – جريئة جرأة غير مألوفة . .

إنها البكر الوحيدة التى أفشت سرّها لأهلها ، وأبلغت النيابة . . هذه أول « حالة » من نوعها تصادفنى فى مغامراتى .

– تعنى أنك صادفت أبكاراً غيرها من قبل ؟

– كثيرات

– و . . . .

– وأرضيت كلاً منهن بكلمتين ، وأغرقتهن بهدايا وفلوس ، مع إشارة مغلّفة مهذبة – من بعيد – إلى فضيلة اتقاء الفضيحة ، وأن ما وقع وقع . . وأنها تستطيع الاعتماد علىّ ، والالتجاء لى دائماً ، وفى أى وقت ، وأية مناسبة . . ولا مانع من وعد عائم بالزواج . . عندما يحين الحين !

وبنفس لهجة السوقة ، أضاف عبد الحميد لطفى :

– هذا طبعاً لمن أعجبتنى منهن ، ومن أحسست بأنه يسعدنى أن ألتقى بها أكثر من مرة . . أما الأخريات – من درجة « مقبول » بلغة الجامعات – فكنت أكتفى باسترضائهن وإرضائهن . . أعنى لقاء واحداً وحسب . . يعنى مرة والسلام عليكم !

وأمسك عبد الحميد لحظة ، وهو يقول فى غيظ لم يحاول أن يخفيه :

– أما هذه ، فقد . . « فَرَسْتْنِى » !

وضحك صديقه وهو يقول : » والله يا أخى أنت جبار . . أبَعْد أن تفعل بها ما فعلت : « تقول إنها فَرَستك » ؟ . . ماذا تقول هى إذن عنك ، بعد أن ذبحتها ؟ !

وشرب عبد الحميد جرعة كبيرة من كأسه ، وهو يقول : « على أية

حال ، هى الخاسرة ! »

– هى خاسرة خاسرة ، وهذه حقيقة لا شك فيها . . لقد خسرت ما لا يُعوَّض فى لعبة !

– لا أعنيها خاسرة بالمعنى « المتخلِّف » الذى فهمته حضرتك !

ضحك صديقه وهو يسأله : « شيئاً من التوضيح من فضلك ، واغفر لنا تخلفنا وقصر نظرنا . . ماذا تعنى بقولك إنها الخاسرة . . من وجهة نظرك غير المتخلفة ؟ »

– يعنى ، مثلاً . . إنها خسرت صديقاً تستطيع أن تلجأ إليه فى أية مناسبة ، صديقاً يغرقها فى الفلوس والهدايا والعطايا والمنن . . كما كانوا يقولون أيام زمان . . والسر فى بئر بينى وبينها !

– ولكن هذه البئر ستكشف يوماً – لا محالة – عما بها . . يوم أن تتزوج فتكون الكارثة .

ضحك عبد الحميد ضحكة خافتة ، قصيرة ، ساخرة ، وهو يقول بلهجة أبناء الشوارع : « والله يا ابنى . . أنت على نياتك ! »

– كيف ؟

– أتظن ما تتحدث عنه لا يزال مشكلة فى الربع الأخير من القرن العشرين ؟

– ألا تراها أنت كذلك ؟

– هذه أمور تُعالَج بعشرة جنيهات ، قبل ليلة الزفاف بليلة ، فيعود كل شىء إلى ما كان عليه من قبل ! . . ويدخل العريس بعروسه فى أمان الله ، وهى كأى عذراء لم يمسها بشر ! . . ثم يصحو صباح اليوم التالى

لزفافه ، يبتسم ويتمطى كأى طرزان ، بعد أن فتح عكا ، ظنًّا منه أنه انتظم سلك الفاتحين . . ثم يحتفظ بالمنديل . المرصّع بقطرات من دمها الغالى ، كأغلى ما يعتز به فى حياته للذكرى والتاريخ !

وزفر الهواء من أنفه ، وهو يحاول أن يكتم ضحكة أحس بأنها ستغلبه وهو يقول :

– هل عرفت الآن كيف أنها الخاسرة ، وكيف أنك على نياتك ؟

وسأله صديقه حافظ ، مبهوراً بما سمع :

– هل فعلتها من قبل يا عبد الحميد ؟ . . أعنى مع عذارى ؟ . . أبكار ؟

– مع ثلاث ، جاءتنى كل منهن قبل أن تزف إلى خاطبها بأيام ، وهى تسألنى كيف تتصرف ، فكنت أصحبهن إلى متخصص لينهى المهمة فى عشر دقائق ، ثم عشر دقائق ثانية لتفيق من المخدر ، وتقوم بعد ذلك كالغزال ، لتدخل – هى – بعد ذلك على زوجها بقلب من حديد ! . . كلهن تزوجن ، وأنجبن ، ويعشن سعيدات مع أزواجهن ، والسر فى بئر ، كما قلت لك . . فأنا رجل شريف صاحب مروءة ، وأعرف كيف أصون أسرار الحرائر !

وضحك حافظ من قلبه وهو يقول : « الله يخرب بيتك يا عبد الحميد . . أنت شيطان ! »

ورفع عبد الحميد كأسه إلى شفتيه ، وهو يقول :

– على أية حال ، أنا عينى على بنت يا حافظ . . لو قدّر لى أن أنالها ، فإنها قطعاً ستمحو عصمت وغير عصمت من تاريخى الحافل المجيد !

– جميلة إلى هذا الحد ؟

– إنها شيء غير عادى . . « فَلْتَة » . . تستطيع بسهولة أن تقول إنها فلتة . . إلى جانب مظهرها الرفيع ، وأناقتها العالية . . لاشك فى أنها من أسرة كبيرة ، ومن مستوى عال .

– أتعرفها ؟

– لا أعرف عنها أكثر من أنها لايمكن أن تتجاوز الثالثة والعشرين ، وأنها تستطيع بجمالها أن تُنْطِق الأصنام التى كانوا يعبدونها أيام الجاهلية . .

– نهارك أسود !

– والله يا حافظ إنها كما أقول لك . . جمالها ينطق الحجر . . يخسف القمر . يسقط المطر ، والسجع غير مقصود !

– ما هذا كله ؟

– إنها تبدو كحجر الماس الكريم ، يضوّى خلف واجهة من البلّور !

– ألا تعرف من هى ؟ . . اسمها ؟ ابنة من ؟ أين تسكن ؟

– الشطر الأخير من سؤالك – أين تسكن ؟ – هو المهم .

– لتستطيع أن تراقب خروجها ودخولها ؟ !

– دخولها لا يهمنى . .

– خروجها هو الأهم ؟

– إنها الفرصة الوحيدة المتاحة . . عندما أراها تحاول أن تستوقف إحدى السيارات دون جدوى ، وأكون بعيداً عنها أراقبها ، فأتقدم عارضاً عليها أن أحملها إلى حيث تريد .

وازدرد جرعة أخرى من كأسه ، وهو يقول فى سعار جنونى .

– آه يا حافظ . . لويتّم هذا ! ! . . آه يا حافظ !

– ماذا تفعل ؟

– أتوب !

– أنت ؟

– ولم لا ؟

– ولماذا لا تتوب توبة صادقة على يديها ، مادامت تعجبك إلى هذا الحد ؟

– وهل قلت غير ذلك ؟ سأتوب بعد أن أنالها .

– إنك تستطيع أن تنالها الليلة .

– كيف ؟

– تذهب إلى ذويها وتتزوجها فى نصف ساعة ، ولن يرفضوك لأنك لا تنقصك غير هذه التوبة النصوح لتكون زوجاً كاملاً ، فأنت شاب وغنى ، ومتعلم ، وابن ناس . . أنت صحيح سافل السلوك والتصرفات . . ولكن مادمت ستتوب كما تقول ، فإنك ستعود إلى أصلك ، ابن ناس . . كما يقولون !

وضحك عبد الحميد من قلبه ، وهو يقول لصديقه : « ألم أقل لك إنك على نيّاتك ؟ »

– لم أنكر أننى هكذا .

– أتريد منى أن أتزوج ؟

– ولم لا ؟ مادمت ستتزوج فتاة يحرقك الشوق إليها كما أرى ، وهى بالتأكيد من أسرة طيبة ، ومن وسط محترم ، كما قلت أنت الآن .

هز عبد الحميد كتفيه ، وهو يغالب الضحك ، وقال :

– الزواج ليس لعبتى .

– مهما كانت جميلة ؟

– مهما كانت جميلة ، فالجمال لا نهاية له ولا حدود .

– والى متى يا عبد الحميد ؟

– إلى أن أشبع .

– عندما تشبع لم تجد من ترضى بك ، لأنك لن تشبع إلا مرغماً ، بعد أن تكون قد انتهيت !

– وما دمت قد انتهيت ، فما حاجتى لامرأة ؟

– لا فائدة منك ياعبد الحميد . . ولكنك – برغم كل هذا – قد أثرت فضولى لكى أرى ساحرتك الجديدة ، التى حدثتنى عنها .

– خذها كلمة منى . . ليلة أن « تَطُبّ » وتصبح فى فراشى ، سأتصل بك تليفونياً من غرفة نومى ، لكى تحضر لتراها ولتسلم عليها ، ثم تنصرف .

– وعد ؟

– وما المانع ؟ وعد طبعاً ، وكفى ثرثرة ، فقد قلبت لى دماغى ، ولقد جُعْت . . ألم تجع أنت ؟

طبعاً جعت .

– سآمر بالعشاء حالاً ، ثم نتحدث أثناء تناولنا الطعام .

٥

الشهور تمضى . .

وعبد الحميد لا يتخلف يوماً عن مراقبة صيده الجديد المأمول بمقربة من بيت أسرتها بحى « جاردن سيتى » .

إنه لا يعرف عنها شيئاً ، ولايهمه أن يعرف ، فهولا يراها إلا بغرائزه وحيوانيته ، وقد بلغ به الشوق إليها حد الهوس !

إنه يراها صورة جميلة ، مضيئة ، مثيرة . . وحسب !

يراها شعراً فاحماً لامعاً غزيراً ، ينساب فوق كتفيها فى دلال آسر . . ويراها عينين سوداوين ساجيتين عميقتين ، تنفثان سحراً دار له رأسه ، يوم وقعت عيناه عليها لأول مرة . . ويراها صدراً بكراً ناهداً ، وخصراً دقيقاً ناحلاً ، وردفين يبدوان فى حركتهما الرتيبة — أثناء سيرها — كإيقاع منتظم لرقصة ساحرة ، تؤديها راقصة من راقصات الجنة . . إذا كان فى الجنة رقص وراقصات ! . . ويراها ساقين متناسقتين مستويتين جميلتين ، تشعلان حريقاً فى قلبه مع كل خطوة من خطاها ، تدق بهما حصباء الطريق ، وهذا حسبه ! . .

ماله هو — وماذا يهمه — إذا كان اسمها أمينة ، أو زوزو ، أو فاطمة ، أوشارلوت ، أو كريستين ، أوفرناندا ، أو . . أم سحلول ؟ !

إنه يريدها وحسب . . يريدها أياً كانت ! . . لا يهمه من تكون ، ولا من يكون أبوها ، ولا لأية أسرة تنتمى . . ولا يعنيه إذا كانت طالبة ، أوعاملة ، أو ربة بيت ، وإن كان يستبعد الاحتمال الأخير ، فإنها تبدو

أصغَر من أن تكون مسؤولة عن بيت وزوج وأطفال . .

حسبه أنها بلغت سن الرشد ، وهذا واضح وضوح الشمس . . وهو كل ما يعنيه ويحسب له ألف حساب . . إنها ليست من صديقات النائب العام ، اللواتى يتمتعن بحمايته ، فقد تخطت هذه المرحلة من سنها ! .

* * *

إلى أن كان يوم . .

يوم أسود ، سواد الهباب . . !

كل شيء كأنما أعد خصيصاً من أجل خاطره وسواد عينيه ، لتقدمها له الأقدار قطعة من الماس البراق الثمين على صفحة من البلاتين الخالص . . ومن حيث لم يكن يتوقع أو ينتظر !

كيف تم هذا ؟

تم بمنتهى البساطة ، وبمنتهى السهولة ، وفى ثوان . . وهو الذى أمضى الشهور ينتظرها ويترقبها دون جدوى . .

كان عائداً من مزرعته ، فقطع بسيارته شارع الأهرام إلى أن وصل ميدان الجيزة ، فانحرف يساراً إلى شارع الجامعة . .

الساعة حول معصمه تشير إلى السادسة مساء . .

كان سعيداً فى ذلك اليوم ، يحس بخفة ونشاط ابن العشرين . . وكان يحمل فى جيب سترته الداخلى ألفين من الجنيهات ، ثمن ثمار حديقة البرتقال التى باعها على أشجارها . .

وأبطأ السير قليلاً ، بعد أن خفف ضغط قدمه على صمام الوقود ، وهو يلقى نظراته السعيدة على جانبى الشارع بين حين وحين . .

فجأة . . !

فجأة لمحها ! . . لمحها من بعيد ، واقفة على إفريز الطريق . . رآها تشير إلى « تاكسى » ، فلم يقف لها . . وفى أعقابه آخر ، كان يحمل أسرة من أب وأم وطفلين . .

وقال لنفسه بصوت سمعته أذناه : « هذه تستحق سيارة رولز ، ولا أقل من رولز ، تُصْنَع لها بمواصفات خاصة » .

إنها هى . . هى بعينها ولاشك فى هذا مطلقاً !

لقد أمضى الشهور ينتظرها قريباً من بيتها – بيت أسرتها – فى « جاردن سيتى » ، لعلها تخرج وحدها يوماً . . ولكنه لم يوفق . من يدرى ؟ . . لعله ليس بيت أسرتها ، ذلك الذى رآها تدخله يوماً . . لعلها كانت زائرة فى ذلك اليوم . . ولعلها تسكن بيتاً من هذه البيوت الحديثة ، التى قامت فى شارع الجامعة ، خلال ربع القرن الأخير .

أوقف سيارته بسرعة وفى هدوء ، وفتح الدرج الصغير الذى أمامه ، وأخرج منه قارورة وقطعة قطن بللها مما فى القارورة ، ثم دسها بين طيات منديله ، ثم أغرق المنديل بقطرات غزيرة من عطر نفاذ ، أخاذ ، قوى ، جميل تضمه قارورة أخرى . . وأعاد المنديل إلى جيبه ، واستأنف السير . .

أخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً . .

وشيئاً فشيئاً تتضح له صورتها الشهية المضيئة ، التى أدارت رأسه يوم أن رآها للمرة الأولى . .

رأسه يدور من جديد كلما اقترب منها ، وقلبه يدق بعنف كلما أحس بأنه يقترب من لحظة المواجهة التى ترقبها طويلاً . . كان إحساسه إحساس

من بدأ العد التنازلى مقتَرِبـاً - رقماً برقم - من بدء مغامرة تتوقف عليها حياته . . إنه يقترب من الصفر !

وقالت له نفسه : « هذه فرصة عمرك يا عبد الحميد ! »

فى هذه الأثناء - وقبل أن يقترب منها ويصبح بمحاذاتها تماماً - مرت بها أكثر من سيارة من سيارات الأجرة ، فكانت تشير لكل منها دون أن تقف لها واحدة من هذه السيارات .

- تقدم يا عبد الحميد !

قالتها له نفسه !

توقف بسيارته وفتح بابها ، وهو يقول فى صوته الخفيض ، وبلهجته المهذبة :

- الآنسة . . لو سمحت لى بحملها إلى حيث هى ذاهبة ، سأعتبر هذا شرفاً عظيمًا .

نظرت له - دون استنكار - وهى تقول : « شكراً ، ولكنى . . »

وأسرع هو يلتقط الحديث منها : « ولكنك ماذا ؟ . . إن العثور على تاكسى فى هذه المنطقة - فى هذا الشارع بالذات - يعتبر حدثاً لا ينقصه إلا أن تنشره الصحف ، ولا شك فى أنك أمضيت ما لا يقل عن نصف ساعة تنتظرين . . . »

نفس الكلمات ، ونفس الألفاظ التى أصبحت - لكثرة تكرارها - تنساب من بين شفتيه كما لو كانت مسجلة على شريط ، فهى لا تتغير .

وابتسمت عائدة . . اسمها عائدة ! . . ابتسمت وهى تقول :

- إننى حقيقة . . أمضيت نحواً من نصف ساعة فى انتظار تاكسى ، دون جدوى .

– إذن أرجو أن تمنحيني شرف حملك إلى حيث تريدين ، فإنني أرى الظلام يقترب ، ونحن الآن فى شهر نوفمبر ، وقد بدأ النهار يقصر . .

– لا أريد أن أزعجك ، أو أن أغير طريقك .

– إننى فى طريقى للقاهرة ، واسمحى لى بأن أقدم لك نفسى ، حتى لا تكونى على جهل بمن تركبين سيارته . . أنا عبد الحميد لطفى ، مزارع . . درست الحقوق ، هذا صحيح . . ولكنى تفرغت لزراعة أرضى فى طريق الأهرام . . أزرعها كلها فاكهة ، بدلاً من متاعب المحاماة أو أسر الوظيفة . . تفضلى يا آنستى . . تفضلى !

أحس بترددها . . إنه – دائماً – يحس بترددهن . . وكانت عبارته المألوفة التى لا تتغير :

– آنستى . . إن لى شقيقات ، وبنات شقيقات ، بعضهن فى مثل سنك ، فأرجو منك ألا تجرحى أخا أكبر ، أو خالاً ، بمظنة سوء !

أجابته فى أدبها المفرط :

– لا سمح الله ، فما فكرت فى سوء قط . . سأركب معك ، فإننى – حقيقة – أخشى أن يتقدم بى الليل ، قبل أن أجد سيارة تعود بى إلى البيت . .

– تفضلى يا آنستى . . تفضلى !

وصعدت ، فركبت إلى جانبه ، وجذبت الباب فأغلقته ، وهى تقول :

– والدى قدم سيارته اليوم لتحمل عروساً من بيت أسرتها إلى بيت زوجها . .

ثم بعد لحظة ، أردفت : « والد العروس رجل طيب ، يعمل مع والدى ».

ثم بعد لحظة ثانية ، أضافت : « ولقد كنت فى زيارة صديقة لى ، أستعير منها كراسة المحاضرات ، لأنسخ منها ما فاتنى خلال مرضى ، أيام الأسبوع الماضى . . »

سألها وهو يتحرك بالسيارة : « الآنسة طالبة ؟ »

– بكلية الحقوق ، فى السنة النهائية.

ابتسم وهو يقول : « يعنى زميلة ! »

– سمعتك تقول إنك درست الحقوق .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قالت بعدها :

– أرجو ألا أبعدك كثيراً عن طريقك . . إننى أسكن « جاردن سيتى » .

– « جاردن سيتى » فى طريقى . . وسأحملك إليها .

وانطلق بسيارته . . وسمعها تقول له :

– إنى أخاف السرعة الزائدة ، فرجائى ألا تسرع كثيراً !

ابتسم وهو يجيبها :

– أنا أيضاً لا أحب السرعة الزائدة . . أترين هذه السرعة معقولة ، أم . . ؟

التقطت الحديث منه ، وهى تعلق حقيبتها بكتفها ، وقالت :

– هذه سرعة معقولة جداًّ . . وشكراً .

وكان يضع أمامه وردة نضرة ، يتضوّع عطرها فيملأ فراغ السيارة . . فالتقطتها « عائدة » ، وقرّبتها من أنفها تستنشق شذاها ، وهى تقول :

– هذه وردة جميلة . . من النادر أن تجمع الوردة بين جمال الشكل والشذى !

ابتسم وهو يسألها : « أتحبين رائحة الورد ؟ »

– أحب العطور الجميلة عموماً . . كل الناس تحب العطور الجميلة !

وأحسّ بقدمها تقترب من الفخ . . إنها تقترب من تلقاء نفسها ، دون أن يدفعها أحد .

قال – وابتسامة هادئة على وجهه – بينما عيناه على الطريق :

– أنا أيضًا ضعيف جدًّا أمام العطور الجميلة ، ولا أبخل بأى مال أدفعه ثمناً لقارورة عطر يعجبنى . . فى الصيف الماضى ، دفعت مائتى جنيه استرلينى ثمناً لقارورة عطر اشتريتها من « لانفان » فى باريس . .

نظرت له ، وقد فوجئت بضخامة الرقم ، وسألته فى دهشة :

– مائتا جنيه ثمناً لقارورة عطر ! !

– تصورى !

– هل هو « الآربيج » ؟

– الآربيج عفت عليه السنون ، ولم يعد أحد يستعمله .

– ما هو إذن ؟

– إنه أحدث مبتكرات « لانفان » .

– لاشك فى أنه شيء غير عادى . . إننى – فعلاً – أشم رائحة عطر ساحرة ، ما اسم هذا العطر ؟

وضع يده فى جيبه ، ثم أخرجها والمنديل بين أصابعه ، فقربه من أنفها ، وهو يقول :

– شمّى ، ولك أن تحكمى بنفسك . . ويخيل لى أنك ستعرفين اسمه

عندما تستنشقين شذاه .

استنشقت عائدة العطر الذى كان يتضوع من المنديل ، فقالت فى ضعف : « الله ! »

ارتسمت صورة الشيطان على وجهه بمعجزة ، وهو يقرب المنديل من أنفها أكثر ، ويقول : « شمّى لتحكمى بنفسك إن كان يساوى مائتى استرليني . . أولا يساويها . . شمّى . . شمّى ! »

وضغط المنديل إلى أنفها ، وهو يردد :

– شمّى بعمق . . بعمق أكثر . . أكثر . . أكثر . . . !

وأيقن من أنها راحت فى غيبوبة ، ولم تعد تدرى بشيء .

فى هذه اللحظة فقط ، ضغط صمام الوقود بقدمه ، فانطلقت السيارة بسرعة الصاروخ ، وكان قائداً ماهراً . . اخترق شارع الدقى فى دقائق ، حتى وصل إلى نهايته . . ومن نهايته مرق إلى مدينة المهندسين . .

انحرف يميناً ، ثم يساراً . . ثم يساراً ، ثم يمينًا ، إلى أن أصبح بعيداً عن العمران ، فهو يريد أن يصل إلى داره خلال طريق غير آهلة . . هذه عادته الدائمة فى مثل هذه الأحوال ، أن يسلك الطرق الخالية غير الآهلة !

وأوقف السيارة أمام الباب . ونظر إليها فوجدها تحاول أن تفتح جفنيها ، فقرّب المنديل من أنفها ، وأبقاه قليلاً إلى أن أغرقها – من جديد – فى غيبوبة أعمق .

* * *

هبط من سيارته ، وحمل الفتاة بين ذراعيه والحقيبة معلقة بكتفها ،

ودخل حديقة « الفيلا » . وكان البواب جالساً أمام الباب ، فوقف احتراماً له ، وحياه تحية المساء . . ولم يرد عبد الحميد تحيته . . كان مشغولاً عن الدنيا بما فيها ، ومن فيها ، بالحمل الخفيف الجميل الذى كان فوق ذراعيه .

تقدم إلى الدرجات الرخامية المؤدية إلى باب المسكن . وكان قد أعد المفتاح فى يده ، ففتح ، وأضاء النور ، وأغلق الباب . . واتجه إلى غرفة نومه ، فأضاء نورها ، ثم أرقد حمله الغالى على الفراش بهدوء وحرص بالغين .

خلص الحقيبة من بين ذراعها وإبطها ، ووضعها جانباً ، ووقف يتأمل صاحبتها لحظات ، من شعرها حتى قدميها . .

عراها بعينيه الجائعتين ، وأحس بحلقه يجف . . إنه يكاد يختنق ، فهولا يستطيع أن يصدق ما يرى . . إنها راقدة فى فراشه ، لقمة سهلة سائغة !

نزع سترته وعلقها على مسند مقعد قريب ، ثم فك بنيقة (١) قميصه ، ونزع ربطة عنقه وألقاها على المقعد الذى يحمل سترته . . واقترب منها ببطء شديد ، وهو يتأملها فى شراهة جائع تشققت معدته وأمعاؤه وشفتاه جوعاً إلى قطعة لحم وعطشاً إلى قطرة ماء !

انحنى عليها ، وألصق شفتيه بشفتيها . . وراح يمتص منهما الشهد . . أحلى ماذاق فى حياته من شهد !

— سكر يا بنت الكلب سكر !

(١) البنيقة هى الياقة — « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور.

عبارته السوقية التى يعبر بها دائماً عن إعجابه وسعادته . . قالها وهو يحسر ثوبها الرمادى الأنيق عن ركبتيها ، وراح يتأمل فخذيها المضمومتين فى حسنهما الفريد . . ولم يتمالك نفسه ، فهوى بشفتيه عليهما يقبلهما ، قبلات مجنونة محمومة ، وقد تحول إلى حيوان .

وابتسم كمن تذكر شيئاً كان غافلاً عنه ، فرفع رأسه عنها ، وخلع قميصه فأصبح بنصف ثيابه . . ثم أخرج من جيب سترته المنديل ، الذى يضم قطعة القطن المبللة بالمخدّر ، ووضعه فوق أنفها لتظل فى غيبوبتها ، واتّجه إلى المسرة القريبة من الفراش ، ورفع السماعة ، وأدار القرص بستة أرقام . . ولم تمض لحظات حتى بدأ حديثه :

– آلو ، يا حافظ !

كان يكلم صديقه حافظاً . .

– لك عندى مفاجأة ستذهل لها . . نعم . . حصل وطبّت . . وحياتك عندى ، طبّت يا أبا الحفظ . . إنها أمامى ، راقدة فى فراشى ، أجمل من القمر . . لا طبعاً ، إنها فى غيبوبة المخّدر . . لا يهمنى اسمها . . المهم أنها هى التى ترقبتها شهوراً . . كل ماعرفته منها أنها طالبة فى كلية الحقوق . . لا ، لا ، لا . . اسمع ! . . لقد وعدتك بأن أعطيك الفرصة لتراها . . يمكنك أن تحضر بعد ساعة ، أكون قد فرغت منها ، وتكون هى قد أفاقت من المخدّر ، فتسلّم عليها ثم تنصرف وحدك ، لأحملها بعد ذلك إلى بيت أسرتها . .

ثم مداعباً ، بلهجة من يريد أن ينهى المكالمة :

– المدة انتهت ياحافظ ، بلغة بنات مصلحة التليفونات . . ولاتقلب

لى دماغى ، الله يقلب دماغك . . فيما بعد يا حافظ . . فيما بعد . . مع السلامة .

وأعاد السماعة إلى حاملها ، ثم رفعها عنه ثانية ، ووضعها قريبة من آلة التليفون ، حتى لا يزعجه الجرس ، إذا ناداه أحد معارفه . .

اقترب من الفراش ، وجلس على حافته ، وبدأ ينزع عنها ثوبها . .

ألقى الثوب جانباً ، فأصبحت بقميصها الحريرى الناصع المشغول والمنهدة من تحته تحرس الثمرتين الدافئتين الشهيتين . .

ورفع عن أنفها منديله المبلل بالمخدر ، فوضعه بجانب المسرة ، وبدأ ينزع بقية ثيابه . .

الصمت مطبق ، كما لو كانت الغرفة كهفاً قريباً من إحدى قمم الهيمالايا ، لم تطأه قدم بشر من قبل . .

وجحظت عيناه وقد بلغت به الرغبة حد الشبق ، ولو نظر إلى المرآة فى هذه اللحظة ، لأنكر وجهه الذى يطالعه فى صقالها ، ولفزع منه . .

إنه ليس وجهه . . إنه وجه قرد !

الصمت لا يزال مطبقاً ثقيلاً رهيباً ، فهناك عذراء سيُسفَح دمها غيلة بعد لحظات . . ولو مشت نملة على الجدار ، لفضح الصمت الثقيل الرهيب صوت احتكاك أرجلها الدقيقة بسطح الجدار !

ألقى عبد الحميد فى جوفه جرعة من خمر ، تضمها قارورة قائمة على مرتفع قريب من خزانة الملابس . .

واقترب من الفراش . .

الثمرة الشهية ، التى تمنّاها واشتهاها شهوراً . . هاهى ذى دانية ،

فى متناول يده ، تنتظر القطاف . .

اقترب من الفراش أكثر . . ونزع ساعته الثمينة من حول معصمه ووضعها جانبًا ، وركع على ركبتيه ملتصقاً بحافة السرير . ورفع قميصها عن فخذيها أكثر ، وراح يتأمل فتنتها ، ويملأ عينيه الشرهتين منها ، ولو ملك أن يأكلها لحماً ودماً وعظماً ما توانى لحظة . .

* * *

وقام من ركعته وقد تهيأ ليهم بها . . بعائدة . . بنت الثالثة والعشرين . . طالبة السنة النهائية بكلية الحقوق . . وحيدة أبويها وأملهما من الحياة . . رجاؤهما وقرة عينى كل منهما . .

ولكنه فجأة . .

فجأة ، وقبل أن يقربها ، أحس برعب قاتل . . خيل إليه أن الدم قد توقف وتجمد فى عروقه ، وأن حركته قد شُلَّت عندما جاءه – من خلفه – صوت آمرٌ ، خشن :

– عندك !

انتفض كلوْلَب من الصلب القوى ، وقد جف حلقه . . والتفت إلى ورائه . .

وجده منتصباً أمامه كالهول . .

شاب فى نحو الثلاثين من عمره ، شعره خليط من الأسود والأبيض ، يعلو جبيناً عريضاً ، وحاجبين سوداوين غـزيـرين فـوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . . رداؤه السواد من قطعة واحدة ، وقد دس كفيه فى قفازين من لون ردائه . . واضح الملامح ، حاد التقاطيع ، صارمها كأنما لم تطف

البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، وحتى هذه اللحظة التعسة السوداء فى حياة عبد الحميد ، الذى أسرع فتمالك نفسه ، واسترد رباطة جأشه ، وهو يصرخ بالغريب الواقف أمامه :

– من أنت ؟ . . وما الذى أتى بك إلى بيتى ! . . وماذا تصنع هنا ؟

استعرضه الزائر الدخيل بنظرة قاتلة ، مسحته من رأسه إلى قدميه ، دون أن يفتح فمه بكلمة . فصرخ به عبد الحميد :

– تكلم ! . . من أنت ؟ . . وماذا تفعل هنا فى بيتى ؟

أجابه الشاب فى هدوء قاتل :

– أنا لص . . دخلت بيتك من الباب الخلفى لأسرق . . بعد دقيقة من دخولى ، سمعت المفتاح يدور فى ثقب الباب ، وأضىء نور الردهة الخارجية ، فأسرعت بالاختباء خلف هذه الستار . . رأيتك تدخل وتلقى بهذه الفتاة على فراشك ، وتضع على أنفها المنديل المخدّر حتى لا تفيق أثناء حديثك التليفونى . . وسمعت محادثتك البذيئة ، كلمة بكلمة . . ثم شاهدت ما أنت مقبل عليه ، وأنا مختف خلف الستار ، فأحسست وأنا لص – بأننى أشرف ، وأكبر ، وأعظم بكثير مما كنت أظن بنفسى . لأننى لم أكن أتصور أن هناك لصوصاً بهذه القذارة التى تتمتع بها سيادتك يا أخسّ نذل فى هذا العالم !

ثم صرخ به فى احتقار شديد : ابتعد عنها يا أفندى . . يافضيحة الأفندية ومعرتهم ! »

ولم يكد اللص ينتهى من عبارته ، حتى عاجله عبد الحميد بلطمة هائلة مفاجئة ، وهو يقول : « سأسجنك يالص ياابن الـ . . . . . »

سأسلمك للشرطة حالاً ! »

ولكن اللص ردّ له اللطمة بمثلها . . بل إنها كانت أكثر إيلاماً . . ولكن عبد الحميد فارع الطول ، عريض المنكبين ، قوى يمتلئ صحة وعافية ، فتلقى اللطمة التى ردها إليه اللص فى ثبات ، ثم عاجله بلكمة إلى فكه ، أتبعها بأخرى إلى بطنه . .

كان واضحاً أنه أقوى من اللص ، وأن الغلبة ستكون له . . ولكن اللص استمات حتى يواجهه ويحتضنه ، فلا يفطن عبد الحميد لما سيفاجئه به . . وعبد الحميد مستمر فى توجيه لكماته القوية إلى جنبى اللص ، وبطنه ، وعموده الفقرى يحاول أن يحطمه بقبضته ليسقط عاجزاً بلا حراك . . ولكن هذا استل من خصره خنجراً ماضياً ، غرسه — بكل ما فى ذراعه المفتولة من قوة — فى قلب غريمه ، الذى صرخ صرخة واحدة خافتة ، سقط على أثرها على الطنفسة[1] والخنجر غائص فى قلبه . .

شد اللص قامته ، ورفع رأسه ، وشهق شهيقاً عميقاً ملأ صدره بالهواء ، ثم زفره بسرعة ، وأسرع إلى خزانة الملابس ففتحها وكان المفتاح فى ثقب بابها — فالتقط ما وجده أمامه بداخلها من أشياء صغيرة ثمينة ، دسها فى جيبه ، ثم استدار إلى جهة عبد الحميد . . الذى كان راقداً والخنجر مزروع فى صدره ، كما لو كان سارية مركب تغرق فى بحر من الدم !

عينه اللماحة التقطت ساعة عبد الحميد ، التى خلعها — قبل أن يهمّ بعائدة — وألقى بها قريباً من الفراش ، فأخذها بهدوء ، ووضعها فى أحد جيوبه . .

---

(١) الطنفسة هى السجادة — « معجم الفاظ الحضارة » : محمود تيمور

العين اللماحة – ذاتها – بهرها بريق حجر من الماس فى حجم البندقة المقشورة ، يزين خاتماً يحيط بأحد أصابع عبد الحميد ، فانحنى . . وبأصابع خبيرة مدربة سحب الخاتم من حول أصبع عبد الحميد ، وأضافه إلى مافى جيوبه . .

واتجه إلى السترة المعلقة على مسند المقعد القريب من الفراش ، ودس يده فى جيبيها الخارجيين . . فى الجيب الأيمن لم يجد شيئاً يهمه . . ولكن يده خرجت من الجيب الأيسر بسلسلة قصيرة غليظة ثقيلة من الذهب الخالص ، تنتهى من أحد طرفيها بمفتاحين صغيرين ، أدرك من فوره أنهما مفتاحا سيارة . . وفى طرفها الثانى تنتهى بعلبة من الذهب الخالص أيضاً ، وبداخلها مصحف صغير !

فك المفتاحين من الحلقة التى تضمهما ، ووضعهما جانباً ، واحتفظ بالسلسلة ، وهو يقول مخاطباً ضحيته الغارقة فى دمها :

– وتحمل مصحفاً يا ضلالى يا مفترى ! ! صحيح . . من « اختشوا » ماتوا !

ومد يده إلى أحد جيبى السترة الداخليين ، فخرجت بقلم من أقلام الحبر الثمينة النادرة ، أما الجيب الثانى ، فقد كان مسك الختام . . لقد خرجت يده منه برزمتين ضخمتين من الأوراق المالية ، من فئة العشرة الجنيهات ، أدرك من فوره أن كل رزمة منهما تضم ألفاً من الجنيهات » هكذا كان مكتوباً على كل منهما ، فأسرع بإخفاء إحداهما فى جيب سرواله الأيمن ، والثانية فى الجيب الأيسر . .

* * *

اتجه اللص نحو « عائدة » ، وهو يقبل أصابع يمناه ظهراً لبطن ، ويقول لنفسه : « رضا وسيدنا النبي . . رضا ! »

في هذه اللحظة ، بدأت عائدة تفتح عينيها ، وهي لا تزال راقدة في الفراش ، لا تشعر بما جرى حولها من هول . .

في الثواني الأولى لصحوتها وعودتها لوعيها ، كانت تفتح عينيها وتغمضهما في لمسات سريعة خاطفة ثم فجأة ، فتحت عينيها تماماً ، وإذابها أمام رجل غريب عنها . . رجل تراه لأول مرة . . رجل – أوشاب – في نحو الثلاثين من عمره . . شعره خليط من الأبيض والأسود ، يعلو جبينًا عريضاً ، وحاجبين سوداوين غزيرين ، فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . .

– رداؤه السوادمن قطعة واحدة ، وقد دس كفيه في قفازين من لون ردائه . .

وجهه واضح الملامح ، حاد التقاطيع ، صارمها كمن لم تطف البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، حتى هذه اللحظة التعسة من حياة « عائدة » . .

ارتسم الفزع على وجهها ، وأطل من عينيها الصافيتين ، يكاد يذهب بصفائهما ليلونهما بلونه . . هل للفزع لون يميزه كما لو كان من الماديات التي يمكن أن تتلوّن بألف لون ؟ ؟

وهمّت بأن تصرخ ، ولكن اللص وضع أصابعه على شفتيها بلطف شديد ، وهو يقول : « أرجوك . . إني أحاول أن أسترك وأخلصك من فضيحة مؤكدة » .

سألته في صوت كأنه آت من أصابع قدميها : « من أنت ؟ » .

أجابها ببساطة متناهية :

– بدون أن تنزعجى . . أنا لص !

– لص ؟ !

– لاداعى للفزع . . لقد أرسلتنى العناية لأخلصك من هذا الحيوان ، فى اللحظة المناسبة ، قبل أن . . .

وأمسك اللص قليلاً ، ثم قال بصوت حزين : « ثلاثة بالله العظيم . . أنا لص ، إنما أشرف منه ألف مرة ! »

ولاحت منها التفاتــة إلى « عبد الحميد » وهو راقد على الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة ، والتى تشرّبت دماءه التى نزفها والخنجر مغروس فى صدره ، يحكى قصة نهايته المؤسفة . . وكادت تصرخ ثانية ، ولكن اللص ناشدها بقوله :

– اعملى معروفاً . ليس لدينا وقت . . واحمدى الله على أن انتهت الليلة على هذا النحو . .

صعدت الدموع إلى عينيها وهى تقول :

– أنا بريئة . . كنت مخدَّرة . . خدّرنى فى سيارته . . .

– استطعت أن أفهم كل شىء، وهو يتحدث إلى حيوان مثله تليفونيًّا ، ولهذا صممت على إنقاذك من شره ، والحمد لله على نجاتك وسلامتك . . هيا وبسرعة . أرجوك . . أدخلى فى ثوبك ، إذ يجب أن نخرج من هنا فى دقيقة ، لأن صديقه سيحضر ليراك وليسلم عليك ، كما سمعته يقول . . والوقت يجرى بسرعة

وأولاها ظهره ، وراح يتفحص محتويات الغرفة بعينيه ، فقد يجد ما يستطيع ضمه إلى مسروقاته .

مرت عايدة بأصابعها فوق جبينها ، تحاول أن تزيل آثار الغيبوبة التى كانت غارقة فى ضبابها ، ثم ارتكزت بكفها على حافة السرير المصنوع من الخشب الفاخر . . وتحاملت على ساقيها ، وهبّت – دفعة واحدة – واقفة . . وأسرعت فارتدت ثوبها فى ثوان ، ودست قدميها فى حذائيها ، وكان عبد الحميد قد نزعهما منهما . .

فى هذه الأثناء ،لاحت من اللص نظرة إلى المنديل الذى يخفى بين طياته قطعة القطن المبللة بالمخدر ، وكان عبد الحميد قد ألقاه قريباً من الفراش ، عندما بدأ يهمّ بعائدة . . فالتقطه ووضعه فى أحد جيوبه ، وهو يقول : « منديل الحلو . . توحة تربط به رقبتها ، أو رأسها ، عند اللزوم ! »

والتفت إلى عائدة يسألها : « جاهزة ؟ »

– جاهزة . . من أين سنخرج ؟

– من الباب الخلفى للفيلا . . تفضلى بمنتهى الهدوء

– هل تخرج معى ؟

– وهل أتركك هنا ؟ . . إننى أريد أن أؤمن طريقك وسلامتك ، ولو كلفنى هذا حياتى . . ثم أتركك فى العمران ، لتركبى أول « تاكسى » يقابلك .

أطرقت برأسها وهى تهمس فى مرارة أليمة :

– تاكسى ؟ ! . . لعنة الله على كل سائق تاكسى لا يقف لمن يشير له بالتوقّف ، إذا كانت السيارة التى يقودها خالية من الراكبين .

سحبها اللص من يدها برفق ، واتجه بها إلى باب الغرفة ، فبارحاها إلى ردهة المسكن .

لم تفطن عائدة – وهى تحت وطأة إحساسها المرير بالضياع – إلى أنها تركت حقيبة يدها سهواً ، حيث وضعها عبد الحميد عندما دخل حاملاً إياها على ذراعيه . .

همس اللص فى أذنها : « سنتجه إلى المطهى ، لنخرج من الباب الخلفى للفيلا » .

هزت رأسها إيجاباً ، دون أن تفتح فمها بكلمة .

فجأة . . أزّ جرس الباب فى ردهة المسكن ، وهما فى منتصفها . .

أحست كما لو كانت قطة صغيرة ، أحاطت بها مجموعة من الكلاب الضخمة الشرسة المدربة . . الرعب يحاصرها . . يسكن كل خلية من خلايا جلدها ، فيجعلها تحس بأن ساقيها أعجز من أن تحملا جسمها ، وأنها ستسقط عجزاً وضعفاً وإعياء !

وأحس اللص بما تعانيه ، فجذبها من يدها بسرعة نحو المطهى ولكنها استوقفته دون كلمة منها ، وهى تدق صدرها بكفها فى ضربات سريعة متلاحقة ، وقد رسم الهلع تهاويله على قسمات وجهها الدقيقة .

سألها بعينيه سبب توقفها ، بينما جرس الباب يجلجل بصورة شبه مستمرة فى ردهة المسكن ، فهمست فى رعب قاتل كأنها تستغيث :

– حقيبتى . . نسيتها فى الداخل !

أشار لها لتسبقه إلى المطهى ، وأن تنتظره بداخله دون أن تضئ نوره وأسرع عائداً فى خفة الفهد إلى غرفة النوم . . ولم يغب بداخلها أكثر من ثانيتين ، عاد بعدهما إليها يحمل حقيبتها ، فسلمها إياها ، ودفعها نحو الباب المفضى إلى الجزء الخلفى من حديقة « الفيللا » . وخرجا فى هدوء ،

ورنين جرس الباب يصل إليهما من بعيد . .

* * *

الظلام شامل ، فإن الليل قد أقبل . .

وأحس اللص بأن صاحبته الصغيرة تتعثر فى خطواتها ، فأمسك بساعدها فى رفق ، وهو يهمس لها :

– اجمدى ، ولا تخافى ! . . هذا هو الباب الخلفى للحديقة .

وخرجا إلى أرض فضاء واسعة غير مرصوفة ، يبدو واضحاً أنها لاتزال تحت التخطيط والتقسيم وشق الشوارع . .

قالت ترجوه : « أرجوك ! »

– رقبتى !

– لا تتركنى قبل أن نصل إلى النور والناس والعمران .

أجابها مؤكداً ، بصوت حاول كل جهده أن يشيع بنبراته الطمأنينة إلى نفسها : « لاتخافى . . سأدافع عنك بحياتى ، حتى تطمئنى إلى ضمان وصولك البيت سالمة » .

تصاعدت الدموع إلى عينيها ، وهى تقول : « لا أعرف كيف أشكرك »

– لا شكر على واجب محتوم الأداء على أى رجل شريف .

– إنك أنقذتنى من عار الأبد . . وقفت إلى جانبى وقفة كبيرة ، ولا أدرى كيف أرد جميلك !

أجابها فى إيمان عميق ، أثار دهشتها أن يصدر عن لص لا مانع لديه من أن يقتل . . إذا اضطر للقتل .

– كله باق ! . . يبقى لى فى ابنتى التى لم تتم من عمرها العام الثالث . .

ألا يجوز أن تتعرض ، عندما تكبر وتصبح شابة ، لمثل ما تعرضت له الليلة ؟ . . حتماً ستجد إذ ذاك من ينقذها كما أنقذتك . . الله لا يتخلى عن الضعفاء أبداً . . وكله بثوابه !

ثم أردف بصوت باسم ، كأنه يسخر من نفسه : « ومن يدرى ؟ ! . . ألا يجوز أن تقفى إلى جانبي يوماً ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أولك أن نتكهن به الساعة ، وبذلك تردين لى ما تعتقدين أنه جميل قدمته لك ؟ . . كل شيء جائز يا بنتى ، ولا تستبعدى شيئاً ! » .

سألته بعد لحظات ، وهما يغذان السير فى الطريق المظلمة :

– تقول . لك طفلة ؟

ابتسم حناناً – فى الظلام – وهو يقول :

– رشا . . اسمها رشا . . تتم ثلاثة أعوام بعد شهر .

– حلوة ؟

– قمر . . أصل أمها قمر !

– توحة ؟

– من أين عرفت اسمها ؟

– سمعتك تقول ، وأنت تأخذ المنديل : « توحة تربط به رقبتها أو رأسها عند اللزوم » ، قلت لنفسى لابد أنها زوجته . .

– كما أنقذتك الليلة بمعركة ، تزوجت « توحة » بمعركة .

– كيف ؟

– كنت عائداً فى نحو الثالثة صباحاً ، من بيت فى شارع الأهرام ، بعد انتهائى من عملية ناجحة . . الدنيا صيف ، والجو جميل . . سكون

مريح لأعصاب من يمتهن مهنتى المقرفة . . المزاج معتدل أربعة وعشرين قيراطاً . . وفجأة ، سمعت صراخاً خلفى ، فالتفت . . وإذا بى أمام سيارة « تاكسى » ، يحاول سائقها والراكبان معه — والثلاثة من خنافس هذه الأيام — رأيتهم يحاولون إرغام فتاة على الركوب معهم . . الفتاة تقاومهم مستميتة ، وهم لا يتركون لها فرصة للإفلات منهم . . يا أولاد الأبالسة ! ! . ثلاثة رجال ضد بنت واحدة ؟ ! . . فار الدم فى عروقى . . زاده فوراناً أن رأيت أحدهم يهوى بلطمة قوية على خد البنت ، فهوت أرضاً فى شبه إغماء . . انتهز الآخران هذه الفرصة ، وتعاونا على حملها لإدخالها السيارة ، فأسرعت إليهم وقد لبست القبضة الحديدية فى أصابعى. كنستهم فى نصف دقيقة . !

وضحكت عائدة للتعبير . . وأكمل هو قصته :

— طبعاً كنستهم . . لم يتحمل الواحد منهم أكثر من ضربة لا ثانية لها . . واحد منهم تهشمت عظمة أنفه ، والثانى فقد أسنانه الأمامية ، أما الثالث فقد مزقت القبضة الحديدية فكه الأيسر . .

أحست عائدة بالرعب وهى تلهث وراء حديثه ، فقالت بصوت مأخوذ : « يا ساتر ! . . » .

— ألا يستحقون ؟

— طبعاً يستحقون .

— البنت روت لى قصتها ، ونحن فى الطريق إلى بيت أسرتها ، باختصار شديد . . كانت عائدة من بيت خالتها ، التى توفيت قبل قليل بين يديها . . بيت خالتها فى « الطالبية » ، وبيت توحة وأمها عند « نصر

الدين » . . مسافة ! . . البنيَّة تركت خالتها بعد أن توفيت ، وأسرعت سيراً على قدميها لتخبر أمها ، شقيقة المتوفاة . . أمها لم تكن قد ذهبت معها من بادئ الأمر ، لأنها هى الأخرى مريضة ، وراقدة فى فراشها . . هم ثقيل بعيد عنك ! . . وفى الطريق ، اعترضها أولئك الثلاثة الخنافس ، وحاولوا خطفها . . كأنها ناقصة هم ! . . والباقى رويته لك .

– وبعد ؟ . . كيف تزوجتها ؟

– البنت مسكينة وعلى قد حالها . . التفتت نحوى فجأة ، وهى تبكى ، وسألتنى إن كنت أتزوجها . . البنت حلوة ، صغيرة . . ويتيمة الأب ، كما علمت منها . . ولكنى أشفقت عليها أن تواجه حياة شاقة مع مثلى ، فصارحتها بكل شئ .

سألته عائدة : « ماذا قلت لها ؟ »

– إننى لص . . وسألتها أتتزوجين لصًّا ؟

– يعنى . . لم تخفِ عنها حقيقتك !

– لو أخفيت عنها ما عشنا معاً أكثر من أسبوع . . قبلتنى كما أنا !

– ماذا قالت لك ؟

– إنها أحبتنى بعد أن أثبتّ لها – ورأت بعينيها – أننى رجل ، وأننى دافعت عنها وعن عرضها ، وعرّضت نفسى لأن يتكاثر علىّ ثلاثة يفتكون بى ومع ذلك لم أهتم بهم وتغلبت عليهم وفروا أمامى وأمامها ، برغم الخرافة الشائعة التى تقول إن الكثرة تغلب الشجاعة !

– وتزوجتها . .

– وأنجبنا « رشا » . . وكل أملى أن يساعدنى الله على أن أؤمن لها مستقبلها .

وأجابته عائدة وهى تتأمل – فيما بينها وبين نفسها – هذه الشخصية الغريبة : « سيساعدك الله بإذنه ! » .

وكانا قد قطعا المسافة الخلاء ، وبدأت أنوار حى الدقى تكشف لهما الطريق ، فقال لها : « سنفترق هنا » .

نظرت إلى عينيه ، وهى تقول : « شكراً » .

– سأقف بمبعدة منك ، وكأن أحداً منا لا يعرف الآخر ، إلى أن يتعطف أحد سائقى « التاكسى » فيقف لك ، ليحملك إلى البيت . . ألا يجوز أن يتعرض لك أحدهم وأنت واقفة ؟

– أشكرك مرة أخرى .

– وأنت تفتحين باب السيارة ، احفظى الرقم المكتوب عليه فى ذاكرتك ، لأنى لن أستطيع قراءته من مكانى هنا .

– هذه نصيحة غالية سآخذ بها . . وأشكرك من كل قلبى .

– النصيحة فيما سأقوله لك ، فأرجو أن تستمعى لى جيداً !

– تفضل !

– لا تركبي مع أحد بعد اليوم ، ولو قرأت فى بطاقته الشخصية – أمام خانة المهنة – أنه نبي . . فلسنا فى عصر الأنبياء ، والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو » أو « المرسيدس » . . كلهم ذئاب ، ولا أهين الكلاب فأشبهها بهؤلاء الناعمين ، الذين يفتحون أبواب سياراتهم الفاخرة لأى جميلة ، وكل جميلة ، مرتدين قميص المروءة ، عارضين حملها إلى حيث تريد ، بينما هم يبيِّتون لها ما كان سيحل بك الليلة . . لا أشبّه هؤلاء بالكلاب ، فالكلاب أنظف وأشرف وأعفّ منهم ألف مرة . . فلا تركبي

مع أحدهم مهما كانت الحاجة ملحة للانتقال من مكان إلى مكان . . لا تركبي . . لا تركبي . . لا تركبي !

– صدقت ، هذه المرة كانت الأولى . . وستكون الأخيرة .

– مع السلامة ، والله يتولاك ويسترك !

٦

عائدة تكاد لا تصدق أنها وصلت إلى بيت أسرتها – فى حى « جاردن سيتى » – بعد أحداث هذه الليلة السوداء !

لا تصدق أنها تجلس إلى مائدة العشاء بين أبويها ، وإن لم تأكل غير قطعة من تفاحة . . قطعة صغيرة من تفاحة .

قال لها والدها : « لم تتناولى عشاءك يا عائدة ! »

جاهدت لترسم على شفتيها ظل ابتسامة ، وهى تقول : « لا أحس بقابلية للطعام الليلة » .

وقالت لها أمها : « اكملى تفاحتك يا حبيبتى ! » .

هزت عائدة رأسها كمن يحس وعكة – مثلا – دون أن يدرى سببها ، واجابت : « لست قادرة يا ماما » .

ومست كوب اللبن بشفتيها ، وشربت منه بقدر مايشرب العصفور، ثم ردته إلى سطح المائدة ، وهى تستأذن للقيام للنوم ، فسألها والدها بحنانه البالغ :

– عائدة . . هل أنت مريضة ؟

أبداً . . مرهقة بعض الشئ

وسألتها أمها : « هل أحضرت كراسة المحاضرات من زميلتك ناهد ؟ » .

– أحضرتها . وسأحاول الآن أن أنسخ منها بعض ما فاتني خلال الأسبوع الذى انقطعت خلاله عن المحاضرات ، وإن أحسست بأننى متعبة ، فسأنام فوراً ، وأرجىء النسخ لوقت آخر .

وقبلت كلا من أبويها قبلة المساء ، ودخلت غرفتها ، وارتدت ثياب النوم ، ثم أطفأت النورالكبير، بعد أن أضاءت المصباح الصغير القريب من فراشها . . ثم استلقت راقدة ، وبدأت رحلة عذاب ذهنى وعقلى ونفسى مدمر . .

استعرضت ما حدث لها فى ثوان ، فمر أمام عينيها كشريط تم تصويره فى الجحيم ، بين زبانية يرقصون ويصرخون ، والنار من حولهم ومن فوقهم ومن تحتهم بحار . . بحار . . بحار . . .

بحار من النار لا نهاية لها ، ومع ذلك فهى لا تحرقهم ، وهم لا يتوقفون عن الرقص ولا يكفّون عن الصراخ .

هل ما حدث لها حقيقة ؟ !

هل كانت تحلم ، وأن ما تستعرضه الآن – وهى راقدة فى سريرها ، مفتوحة العينين – ليس إلا من تهاويل ذلك الحلم المفزع ، الذى طاف بها ؟

مستحيل ! . . مستحيل أن يكون حلماً ما مرّ بها . . فهناك رجل استدرجها لتركب سيارته ، فخدرها وهى إلى جانبه . . رجل اسمه « عبدالحميد لطفى » . . وهناك لص أنقذها من اعتداء هذا الرجل عليها ،

وختله فى سبيل ذلك . . وحذاؤها لا تزال بعض الأتربة عالقة به ، بعد أن مشت – ويدها فى يد اللص ، حرصاً منه عليها – مسافة طويلة فوق أرض مترية غير مرصوفة . . والمبلغ الذى سددته ، أجر « التاكسى » الذى حملها من مشارف مدينة المهندسين عائداً بها إلى البيت ، يختلف تماماً عن المبلغ الذى سددته من بيت أسرتها إلى بيت أسرة زميلتها « ناهد » ، فى شارع الجامعة بالجيزة ، لتستعير منها كراسة المحاضرات . .

هذا المبلغ يختلف عن المبلغ الآخر بفارق ملحوظ . . والمتبقى من النقود فى حافظة نقودها الصغيرة – بداخل حقيبة يدها – يؤكد هذا بصورة لا تقبل المناقشة . .

ليس حلماً – إذن – ما تعرضت له . . ولكنه حقيقة لاشك فيها . . حقيقة تقول إن هناك رجلاً قتل فى غرفة نومه ، وإنها كانت فى هذه الغرفة أثناء قتله ، والذى لاشك فيه أن اللص قد سرق ما وقعت عليه عيناه . . فهل هناك ما يقود إليها ؟

إنها لم تترك أثراً

لم تنس شيئًا من أشيائها ، فهى لم تكن تحمل غير حقيبة يدها . . وكراسة المحاضرات الخاصة بزميلتها ناهد بداخل هذه الحقيبة ، والله ألهمها أن تتذكر فى اللحظة الأخيرة أنها تركت الحقيبة سهواً فى غرفة الجريمة . . ولقد أسرع اللص فأعادها إليها ، وهاهى ذى الحقيبة أمامها ، وكراسة ناهد بداخلها . . كما أنها لم تلمس شيئاً من محتويات الغرفة يمكن أن يقود المحققين إليها عن طريق بصماتها . .

إنها لم تفعل شيئاً . . فهى بريئة . .

أكثر من هذا أنها مجنى عليها ، فقد حاول أحدهم الاعتداء عليها باغتصابها ، وخاب أثر الجريمة لسبب خارج عن إرادته – كما توصف الجرائم عادة – بأن تعرض له آخر ، فحال بينه وبين ارتكاب جريمته ، ثم انتهى الخلاف بينهما إلى قتله . .

هل يتصور عاقل أن تقتل فتاة مثلها – لاتزن أكثر من اثنين وخمسين كيلو جراما – رجلاً لا يقل وزنه عن الثمانين ، يمتلئ صحة وعافية وشباباً وقوة ؟ . . هل يتصور عاقل أن تقدم فتاة مثلها على مثل هذه الجريمة ، لتسرق ما لا شك فى أن اللص قد سرقه وهي تحت تأثير المخدر؟

راحت تفتش عما قد يبعث الطمأنينة إلى نفسها ، وفى كل مرة ينتهى بها هذا التفتيش إلى استحالة قيام الشبهات حولها ، ففيم القلق ؟ فيم القلق يا عائدة ؟ . . نامى واطمئنى !

* * *

ومع ذلك فهى لا تنام . . لم تنم حتى الصباح ، وسؤال واحد يلح عليها : ماذا حدث عندما اكتشفت الجريمة ؟

الذى لاشك فيه أنها اكتُشفت قبل أن تصل هى إلى بيت أسرتها ، فإن زائراً – يجوز أنه صديق المقتول ، الذى حدثها اللص عنه فقال إنه فى الطريق لزيارته – كان يضغط الجرس ، وهى فى ردهة المنزل ، فى طريقها واللص معها إلى المطهى ، ليخرجا منه إلى الحديقة ، ومنها إلى الخلاء . .

وهذا الزائر – أو الصديق – لاشك فى أنه سأل البواب عن سيده ، فأفاده بوجوده داخل المسكن . . ومن المؤكد أن نور الغرفة كان يتسلل

من خصاص نوافذها – إلى مَنْ فى الحديقة ، ليؤكد أنَّ صاحب المسكن بداخله . .

ومن المؤكد أيضاً أن الطارق ، أو الزائر ، أو الصديق ، قد رابه – والبواب معه – أن صاحب البيت لا يفتح ، فتحايلا على الدخول بأية وسيلة ، فدخلا وإذا بهما أمام ذلك المنظر المروع . .

رب البيت مقتول . . فارقته الحياة . . الخنجر مغروس فى صدره ، والدماء بدأت تتجمد على جسمه وعلى الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة .

فماذا بعد ذلك ؟

إنها لا تدرى !

وكان لابد لليل أن ينتهى ، وأن يأتى الصباح ، ومعه الحياة والحركة والجرى والسعى والدأب بلا توقف . . عجلة اسمها الحياة ، ما فتئت تدور منذ الخليقة ، وحتى هذا الصباح الأصفر ، الذى لا تدرى عائدة شيئًا عما سيسفر عنه من أنباء وأحداث ومفاجآت . .

كان الصباح صباح يوم جمعة . . يوم عطلة رسمية ، فأعفاها هذا من مقابلة ومواجهة زميلاتها وزملائها وأساتذتها فى الكلية ، فإنها لم تكن مهيّأة للاختلاط بهم وبهن ، كما اعتادت فى حياتها اليومية معهم جميعاً .

جلست إلى مائدة الفطور مع أبيها وأمها كعادتها ، وراحت تحسو من كوب اللبن أمامها ببطء ، وهى تبدو كمن تنظر إلى لا شىء .

وضعت الأم فى صفحة ابنتها بيضة مقشورة ، ساخنة لامعة ، وهى تقول :

– كلى يا عائدة . . إنك لم تتناولى عشاءك أمس ، فنمت جائعة . .

ووضعت إلى جانب البيضة المقشورة شريحة من الجبن « الروكفور».
ثم شريحة من الزبد ، ثم ملعقتين من مربى النارنج ، ثم بضع زيتونات سوداء لا معة ، وهى تقول : « كلى يا عائدة . . كلى يا حبيبتى ! ».

وهمست عائدة ، وكأنها تبتعد عن أبيها وأمها بآلاف الأميال : «شكراً يا ماما ».

كانت عيناها على ظهر الصحيفة التى أمسك بها والدها ، وقد فرغ من تناول إفطاره . . كان يبدو كمن استغرقته القراءة ، وقد نسى أن ابنته فى مواجهته ، وأن أمها عن يمينه تتصدر المائدة . . هكذا تعودوا الجلوس – ثلاثتهم – إلى مائدة الطعام ، منذ كبرت عائدة وطالت قامتها واستطاعت أن تشارك أبويها مائدة الطعام . .

سألته زوجه : « ما أخبار البلد يا محمود ؟ . . هل من جديد ؟ ؟

نحىّ الزوج الصحيفة عن وجهه ، ووضعها جانباً ، وهو يقول :

–لا جديد تقريباً ، ولكن هناك حادثاً فظيعاً . . غريباً وفظيعاً معاً !

تشاغلت عائدة بكوب اللبن بين أصابعها ، تحسو منه ببطء شديد ، بينما اهتمت والدتها بالاستفسار عن هذا الحادث الغريب الفظيع ، الذى يتحدث زوجها عنه

–شاب ثرى . . وجدوه مقتولاً فى مسكنه ، عند أطراف مدينة المهندسين .

– يا ساتر يارب !

قالتها الأم مشفقة ومستنكرة معاً ، وأضافت : الناس ضلّت . . أوجُنَّت ! ».

رفعت عائدة عينيها عن كوب اللبن الذى أمامها ، وهى تسأل والدها فى هدوء :

– وما وجه الغرابة فى الحادث ؟ . . إننا نقرأ فى الصحف كل يوم تقريباً أكثر من نبأ عن مقتل إنسان فى بيته .

رفع والدها فنجان القهوة إلى شفتيه ، ورشف منه رشفة صغيرة ، وهو يبتسم مجيباً ابنته :

– الغرابة فى هذا الحادث أن القاتل ، قاتلة . . أعنى فتاة !

– يا مصيبتى ! . .

قالتها الأم وهى تضع كفها على صدرها ، كمن لا تستطيع أن تصدق . .

– بنت تقتل رجلاً ؟ !

– إنها بكل تأكيد ليست بنتاً عادية ، بالمعنى المفهوم لنا يا فوقية . . فمن المؤكد أنها عاهر محترفة ، خطرة مدربة ، بدليل أنها قتلته . . ومعنى هذا أنها كانت مسلحة بالخنجر الذى استعملته فى ارتكاب الجريمة . . ثم أنها سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب بعض النفائس من جواهر وغيرها . . .

– وكيف عرفوا هذا ؟

– ناظر زراعته قال فى التحقيق إنه كان يحمل ألفى جنيه ، تسلمها من أحد تجار الفاكهة ثمناً لثمار حديقة البرتقال . .

عائدة تستمع لحديث والدها ووالدتها ، ودقات قلبها تزداد سرعة ، وكأن كل دقة منها تحاول أن تسبق التى قبلها . . والدم فى عروقها يكاد يغلى . . يتمدد بسرعة الزئبق فى مقياس للحرارة وضع فى فم مريض تفتك الحمى بجسمه ، وإن هى إلا درجة أو درجتان حتى ينفجر المقياس

حتما ويقفز الزئبق من أنبوبته الشعرية الدقيقة .

وأحسست بأن عليها مشاركة والديها الحديث ، حتى تبدو طبيعية وغير منعزلة عنهما ، فلا يثير صمتها شبهة ما . . فقالت : « الجريمة كانت بدافع السرقة اذن . . ؟ » .

أجابها والدها : « الصحف لم تذكر التفاصيل كاملة ، وإن كان واضحاً أن السرقة كانت هدف القاتلة » .

– هل كانت على صلة بضحيتها ؟

– شهادة البواب تفيد بأن سيده كان فى مزرعته منذ الصباح ، ثم عاد قبل منتصف السابعة مساء بقليل ، يحمل على ذراعيه فتاة غائبة عن الوعى ، فدخل بها مسكنه . . وبعد نحو ساعة ، جاء لزيارته صديق من أقرب أصدقائه إليه ، اسمه حافظ ، فضغط جرس الباب أكثر من مرة ، دون مجيب . . فانضم إليه البواب مؤكداً أن سيده بالداخل ، فلما لم يفتح لهما الباب برغم ظهور نور غرفة نومه من خصاص إحدى نوافذها رابهما الأمر ،فاقترح البواب على صديق المجنى عليه أن يصحبه إلى الباب الخلفى للفيلا ، ليدخلا منه ، فهو يحمل مفتاحه . وعندما دخلا ، وجدا صاحب البيت مقتولاً بطعنة خنجر ، والخنجر مغروس فى صدره ، لم ينزعه القاتل بعد أن طعنه ، وقد تجمدت الدماء التى سالت منه على جسمه وعلى الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة . . .

وسألت عائدة والدها فى هدوء : « والصديق . . ماذا قال ؟ » .

– قال شيئًا غريباً جدًا فى التحقيق . . كان لصديقه المقتول طريقة مخزية للإيقاع بالسيدات أو بالفتيات اللواتى يرقن له فى الطريق . .

فينتهز فرصة ندرة سيارات « التاكسى » ، وطول انتظار السيدة أو الآنسة لسيارة تحملها إلى بيتها – أو إلى حيث هى ذاهبة – فيتقدم منها بسيارته الفاخرة ، عارضاً عليها بكل أدب واحترام أن يحملها إلى حيث تريد . . وفى الطريق يخدرها عن طريق الشم ، ثم يسرع بها إلى بيته ، حيث يعتدى عليها ، وهى تحت تأثير المخدر . . وقد أيّد البواب أقوال صديق سيده . . .

هتفت الأم مولولة : « يا مصيبتى ! ! » .

ووجدت عائدة ما تقوله ، دون أن يثير قولها ريبة ما :

– هو إذن يستحق . . وقد نال جزاءه !

وضحك الأب وهو يقول : « أنا شخصياً لا أستبعد أن تكون القاتلة إحدى ضحاياه ، إذا استبعدنا أنها من محترفات الجريمة . . اعتدى عليها مرة ، فبيّتت له نية الانتقام منه ، إلى أن واتتها الفرصة ، فلم تدعها لتفلت منها »

سؤال كان يلسع طرف لسان عائدة ، وهى تتردد فى إلقائه على والدها . كانت تحس بأنها كمن يسير على حبل مشدود بين ارتفاعين شاهقين ، وأن أية كلمة تخرج من فمها دون أن تكون محسوبة حساباً دقيقاً ، ستكون بمثابة الخطوة غير المحسوبة لمن يسير على هذا الحبل المشدود بين الارتفاعين الشاهقين ، فتكون فيها نهايته !

سألت والدها فى هدوء ، وهى تضع بطرف السكين بعض الزبد والمربى فوق كسرة من الخبز :

– ألم يلتقطوا بصمات للقاتلة يمكن أن تقودهم إليها ؟

وكانت الإجابة عن هذا السؤال أكثر ما يؤرق عائدة . .

طوى الوالد الصحيفة ، وقدمها لابنته ، وهو يقول :

– لا ذكر هنا للبصمات .

– ولكن البصمات مهمة .

قالتها وهى تتناول الصحيفة من والدها ، الذى أجابها :

– بلا شك . . ولكن لم يرد لها أى ذكر أوسيرة ، ومعنى هذا أن مندوب تحقيق الشخصية لم يلتقط أية بصمات تفيد التحقيق . . من الجائز أن القاتلة كانت تضع كفيها فى قفازين .

وأحست عائدة بأن ثقلا كثيباً كان يرزح فوق قلبها ونفسها ، وقد انزاح عنهما فجأة . . إنها تستطيع أن تتنفس . . وتذكرت أن اللص كان يضع كفيه فى قفازين ، ومعنى هذا أنه إذا كانت هناك أية بصمات ، فلن تكون إلا لها أوللقتيل صاحب المسكن . . ومادام مندوب تحقيق الشخصية لم يعثر على أية بصمات ، فليس لهذا غير معنى واحد . . أنها بعيدة عن الشبهات .

وفتحت الصحيفة وأبوها يقول لها : « فى صفحة الحوادث » .

وإذا بصورة « عبد الحميد » تطالعها – كما رأتها بالأمس على الطبيعة رأى العين – وهو ممدد على الطنفسة التى تكسو أرض الغرفة ، وعيناه جاحظتان ، والفزع وألم الطعنة يلوّنان تقاطيع وجهه بتهاويل اللحظات الأخيرة لأى إنسان يلفظ حياته . . الخنجر مغروس فى صدره ، والدم متجلط حوله وعلى الطنفسة . . وإلى جانب صورة الجريمة صورة أخرى من صور عبد الحميد بثيابه العادية ، كأن الصحفى الذى قام بتغطية الحادث قد أراد أن يعطى قراء صحيفته فكرة – أو بالأصح – صورة أكثر

وضوحاً ، للثرى المقتول ، فطلب من أهله صورة عادية له ، لينشرها إلى جانب الصورة التى التقطت له بعد أن أجهزت عليه القاتلة . .

وهمست فيما بينها وبين نفسها :

– يا ساتر يارب . . أستغفر الله العظيم !

* * *

فى غرفتها ، انفردت عائدة بالصحف الصباحية الثلاث ، فى فراشها كعادتها صباح كل يوم جمعة ، وقرأت تفصيلات الحادث ، التى لم تخرج عما لخصه لها والدها وهما حول مائدة الإفطار . .

البواب – ومعه صديق عبد الحميد – رابهما أنه لم يستجب لصوت الجرس ، فلم يفتح الباب . .

أشفقا أن يكون قد وقع له مكروه

دخلا من الباب الخلفى للفيلا فوجداه مقتولاً . .

أبلغا قسم الشرطة ، فقام أحد الضباط لإجراء اللازم ، ثم أخطر النيابة ، فانتقل أحد أعضائها لمكان الجريمة ، حيث بدأ التحقيق .

٧

فى ذات اللحظة التى كانت « عائدة » تقرأ أنباء الجريمة ، وتقارن بين ما كتبته كل من الصحف الصباحية الثلاث وزميلتيها ، كانت هناك أكثر من سيدة وأكثر من آنسة يقرأن تفاصيل الجريمة ذاتها باهتمام أكثر

من أى قارئ آخر أو أية قارئة أخرى . .

إنهن ضحايا « عبد الحميد لطفى » ، اللواتى استدرجهن فى سيارته إلى مسكنه ، واعتدى عليهن بعد تخديرهن ، وآثرت كل منهن ابتلاع غصتها والسكوت على اغتصابها ، اتقاء فضيحة تهدم حياتها ، وتظل تطاردها وتتبعها كظلها إلى الأبد ، ولن يصدق أحد أنها ضحية ! .

ولكن زميلة لهن فى الهم ، كانت أكثر اهتماماً بالحادث من أيهن .

إنها « عصمت » . . آخر ضحاياه قبل أن يصبح هو ضحية مغامرته الأخيرة . .

الوحيدة التى واتتها الجرأة لتلجأ للنيابة العامة ، دون أن تعبأ بفضيحة لا مفر منها ، وإن كانت فى حيّز محدود . حيز أفراد أسرتها وهيئة التحقيق بعد أن التمس خالها من المحقق أن يكتم الأمر عن الصحف كتماناً تامًّا ، فوعده المحقق وكان بارًّا بوعده !

كانت تقرأ تفاصيل الحادث لوالدتها ، وهى تهتز انفعالاً ، إلى أن قالت فى النهاية : « عادل ومنتقم يارب . . تمهل ولا تهمل ! ».

واستغفرت ربها وهى تخاطبه : ليست شماتة يارب . . ولكنها عبرة ! ».

ثم قالت لوالدتها : «كم أود يا أمى ، بل كم أتمنى أن أتوجه الآن لوكيل النائب العام ، الذى حفظ شكواى عندما تقدمت بها ضد هذا الحيوان ، منذ شهور ، بحجة أننى راشدة وعاقلة وأملك أمر نفسى ، وإننى ركبت إلى جانبه فى سيارته بمحض إرادتى ، وأننى لهذا أتحمل نتيجة تصرفى . . . كم أتمنى أن أتوجه إليه الآن ، لأقول له ما بنفسى . .

ولم تكد تنتهى من عبارتها حتى أز جرس الباب فقامت لترى من

الطارق ، وإذا بها – عندما فتحت الباب – أمام أحد ضباط الشرطة ، وهو يقول فى أدب ملحوظ :

الآنسة عصمت مرتضى ؟

– أنا يا سيدى .

– هل تأذنين لى بالدخول ؟

– تفضل . . خيراً إن شاء الله ؟

– خير بإذن الله .

قالها وهو يدخل . . وأغلقت عصمت باب المسكن فى هدوء ، وهى تقول للضابط مشيرة إلى أحد المقاعد : « تفضل بالجلوس ! » .

وجلس الضابط . . وحضرت الأم ، وراعها أن ترى واحداً من رجال الشرطة فى بيتها ، دون أن تعرف لقدومه سبباً . . ولم تكد تسأله هذا ، حتى أسرع يطمئنها :

– لا تنزعجى يا هانم . . إن وكيل النيابة سلمنى هذا الأمر باستدعاء الآنسة عصمت ، لمجرد سؤالها سؤالا واحداً ، تجيب عنه بكلمتين ، وتنصرف بسلام .

أدركت « عصمت » الموقف من فورها ، فقالت ، فى محاولة منها لتبعث الطمأنينة إلى نفس والدتها :

– لا تنزعجى يا « ماما » ، فإننى أدركت كل شىء .

سألتها والدتها ملهوفة : « أدركت ماذا يا عصمت ؟ » .

– الذى لاشك فيه أن الشبهات يجب أن تتجه لى ، متهمة إياى بقتل الأستاذ عبد الحميد لطفى ، فإننى إحدى ضحاياه ، وقد أكون

الوحيدة التى أبلغت باعتدائه عليها . . ولهذا لا يمكن أن يهمل التحقيق استدعائى لسماع أقوالى . . على الأقل ، لكى أثبت للمحقق أين كنت وقت وقوع الجريمة ، فقد أكون القاتلة . . ولم لا ؟

ابتسم الضابط لعصمت وهو يقول :

– كل ما قالته الآنسة عصمت صحيح جملة وتفصيلاً ، وأرجو من الهانم ألا تنزعج .

– ولكن خالها ليس هنا يا ابنى . . إنه فى مهمة خارج القاهرة ، ولن يعود قبل أسبوع .

– إذا أحببت ياسيدتى أن تتفضلى بمصاحبتنا فأهلاً ، وإذا لم يكن يتيسر لك هذا ، فإننى أتعهد بأن أعيدها بنفسى ، لأسلمك إياها يداً بيد !

– شكراً يا ابنى . .

قالتها الأم ، ثم أضافت وهى تقوم عن مقعدها :

– سأصحبكما لأكون بجانبها . . دقائق من فضلك ، وإلى أن أرتدى – وكذلك عصمت – ثياب الخروج . . عن إذنك !

وقامت عصمت مع أمها ، وهى تستأذن الضابط دقائق .

* * *

لم تمض « عصمت » أمام وكيل النائب العام – وأمها معها – أكثر من نصف ساعة . . كان هو نفسه الذى تلقى بلاغها منذ شهور ضد « عبد الحميد لطفى » ، الذى اعتدى عليها بعد أن خدرها فى سيارته . .

ابتسم لها محيياً ، وهو يقول فى رقة بالغة :

– لا بأس يا آنسة عصمت . . حظى أن ألتقى بك دائماً فى مناسبات ليست سارة . . ولكن اليوم ، ليس أكثر من مجرد إجراء بسيط ، ستنصرفين بعد الانتهاء منه إلى دارك بسلام .

ابتسمت وهى تجيبه فى هدوء :

– شكراً ، سيادة النائب . . أدعملك على الوجه الأكمل !

سألها بعد أن فتح المحضر : أين كانت فى اليوم السابق ، بين الساعة السادسة والثامنة والنصف مساء ؟ فأجابت بأنها كانت مع والدتها عند طبيبها المعالج – طبيب الأم – الذى حرر لها هذه التذكرة الطبية ، وأشارت لأمها فاخرجت – هذه – من حقيبة يدها تذكرة الطبيب ، مؤرخة بتاريخ اليوم السابق .

وأضافت عصمت قائلة :

– ومن عيادة الطبيب ، توجهنا معاً إلى أقرب صيدلية لنشترى الأدوية الموصوفة لها ، وكان من بينها مالا مفرّ من تجهيزه . أى أنه استوجب منا الانتظار إلى أن يتم هذا التحضير ، فانتظرنا إلى نحو الساعة العاشرة ، ويمكن لسيادتك أن ترى خاتم الصيدلية باسم صاحبها على التذكرة ، وبالتاريخ ذاته ، تاريخ الأمس . .

ودخل الغرفة أحد رجال الشرطة برتبة عريف ، فالتقط بصمات « عصمت » ، وهى تتساءل فى دهشة عن سبب هذا ، فأجابها النائب فى لطف ملحوظ :

– إنه مجرد إجراء بسيط ، على سبيل الاحتياط الكلى ، حتى لانزعجك باستدعائك مرة أخرى .

وطلب منها أن توقع على أقوالها ، وكانت لا تتعدى الإجابة على السؤال الواحد الذى وجهه لها . . وعند ما سألته إن كانت تستطيع أن تنصرف ، رجاها أن تنتظر دقائق معدودات ، فظلت جالسة فى مكانها إلى جانب أمها ، إلى ان عاد الشرطى الذى التقط بصماتها – منذ قليل – ومعه ورقة قدمها للنائب ، فقرأها فى لمحة قصيرة ، ثم أومأ إلى « عصمت » بأنها تستطيع أن تنصرف بسلام .

قامت « عصمت » عن مقعدها واقفة . . ولكنها قبل أن تتجه نحو باب الغرفة خارجة ، قالت للنائب المحقق :

– سيادة النائب . . الله يمهل ولا يهمل . . ولا شك أن من قتلته كانت إحدى ضحاياه . . ولقد كنت أتمنى أن أقوم أنا بهذه المهمة ، وإن قدمت حياتى ثمناً لها !

ابتسم النائب وهو يقول فى هدوء : « أرجو منك أن تنسى ما مضى ! »

ابتسمت عصمت فى مرارة ، وهى تقول :

– أنسى ؟ ! . . تريد منى أن أنسى ؟ ! . . أنسى ماذا ياسيدى ؟ . . إننى أستأذنك لأسألك سؤالاً واحداً بسيطاً : ما الفرق بين رجل خدّر فتاة ركبت معه بإرادتها ثم هتك عرضها ، وبين رجل آخر خدّر فتاة ركبت معه بإرادتها ثم قتلها بسكين ؟ . . هل يحفظ البلاغ فى الحالة الثانية – حالة القتل – كما يحفظ فى الحالة الأولى ، حالة هتك العرض ؟ . . وهل يخلى سبيل القاتل لأن الفتاة التى قتلها يجب أن تتحمل نتيجة تصرفاتها ، باعتبارها بالغة سن الرشد ، ولأنها ركبت معه بمحض إرادتها ، كما فى حالتى منذ شهور ؟ . . أو ، السؤال فى كلمتين ، هل يخلىَ سبيل القاتل

لمجرد أن المقتـولة ركبت مع قاتلها برغبتها ، وهى رشيـدة تملك أمر نفسها ؟ .

وابتسم المحقق محاولاً تهدئة عصمت ، وهو يقول :

– هذا بحث قانونى طويل ، ولا أظن هذا وقته يا آنسة « عصمت » .

وأضافت « عصمت » والمرارة تقطر مع كل حرف من حروف كلماتها :

– سيادة النائب . . بأمانة شديدة ، صدقنى إذا قلت لك . . إننى أشفق على أى محقق يرى نفسه عاجزاً أمام قصور القانون ، عندما تعرض له حالة من هذه الحالات ، فإذا به يجد نفسه مضطرًّا للإفراج عن مجرم هو أول من يؤمن بأنه مجرم حقيقة !

وبذلت جهداً هائلاً حتى لاتفلت من عينيها دمعة حاولت أن تقهر مقاومتها لتفرّ من بين جفنيها . . وأسرعت – وذراعها فى ذراع والدتها – خارجة ، وهى تنحنى للنائب المحقق انحناءة تحيـة وشكر ، فقد كانت تحس فى أعماقها بأنه متعاطف معها ، مقدر لمأساتها ، وإن كان قاصر اليد والحيلة .

وهى فى سيارة « التاكسى » – بجانب أمها – فى طريق عودتهما إلى المنزل ، سمعت نفسها تسألها :

– هل من الضرورى أن يحدث ما حدث لك يا عصمت لابنة أحد الكبار المسئولين ، ليتقدم باقتراح تعديل هذه القوانين القاصرة ، حتى تأخذ فى صورها المعدَّلة برقاب أمثال « عبد الحميد لطفى » ؟

وأخفت عن والدتها دمعة لمعت فى عينيها . .

٨

« عائدة » . . وهى تدخل حرم الجامعة صباح السبت ، متجهة إلى كلية الحقوق ، للاستماع إلى محاضرة الصباح ، كان يخيل إليها أن كل العيون تتجة نحوها ، تحمل نظرات الاتهام . . عيون زملائها وزميلاتها ، وصديقاتها . . وكل من تعرف ومن لا تعرف . .

كان يخيل إليها أن كل هذه العيون تقول لها :

– أنت من كانت مع بطل فضيحة الأمس ، التى نشرتها الصحف الصباحية والمسائية . . وأنت التى قتلته ، وسرقت ماله وجواهره ونفائسه !

وكان يخيل إليها أن كل من يتقدم لتحيتها من الزملاء أو الزميلات ، سيبادرها بالاستفسار عن تفاصيل الحادث : كيف بدأ ، وكيف انتهى ، وكيف خرجت من المأزق خروج الشعرة من العجين ؟ !

وجهاً لوجه ، وجدت نفسها أمام صديقتها ناهد . . التى كانت فى زيارتها قبل الحادث ، لتستعير منها كراسة المحاضرات .

خيل إليها – لوهلة – أن ناهد ستسألها :

– ما الأخبار ؟ . . ما آخر تطورات الحادث والتحقيق الذى يجرى بشأنه ؟

ولكنها تساندت وتماسكت، وحيّت ناهد – كما تحييها كل صباح – بابتسامتها العذبة الرقيقة ، وقالت لنفسها ، أو قالت لها نفسها :

– تماسكى يا عائدة . . فكل هذا ليس إلا أوهاماً يهيئها لك الخوف . .

وهل من المعقول أن يخطر ببال إنسان – أى إنسان – أنك بطلة الحادث الذى أصبح حديث الجميع ؟ !

سألتها ناهد فجأة : «مالك يا عائدة ؟»

وفوجئت بالسؤال . . ولكنها تجلدت أكثر ، وتماسكت أصلب ، ونسجت ظلال ابتسامة على وجهها ، وهى ترد سؤال ناهد بسؤال من عندها : «مالى يا ناهد ؟ . . هل ترينى على غير عادتى ؟»

أجابتها ناهد بابتسامتها الوديعة ، التى أحبتها عائدة منذ اليوم الأول للقائهما ، طالبتين صغيرتين من السنة الأولى بكلية حقوق جامعة القاهرة ، إلى أن وصلتا – معاً – إلى السنة النهائية :

– أبداً . . ألمح شحوباً على وجهك ، وهذا كل شىء . . ربما لم تأخذى كفايتك من النوم !

– هذا صحيح يا ناهد . . لم أنم كفايتى ليلة أمس .

وسارت الصديقتان فى طريقهما إلى المدرج الذى يستمعان فيه إلى محاضرة اليوم عن القانون الجنائى .

ناهد سألت عائدة فجأة : «هل قرأت الحادث الغريب فى صحف أمس ؟»

أجابتها عائدة فى هدوء : «وتابعت قراءته فى صحف اليوم ، ولو أنها لم تأت بجديد» .

– الحادث غامض . .

– يستمد غموضه واستثارته للقراء من كون بطلته فتاة . . هذا رأى الجميع تقريباً .

– وأية فتاة يا عائدة ! ؟

– بمعنى ؟

– حرصها الشديد . . تنفيذها الجريمة بإحكام . . براعتها فى أنها لم تترك بصمة واحدة تقود المحققين إليها . .

علقت عائدة على رأى صديقتها قائلة :

– أتعرفين يا ناهد ؟ . . لقد اكتشفت حقيقة هامة جدًّا ، بعد شيء من التفكير فى ملابسات الحادث .

– أية حقيقة يا عائدة ؟

– حتى لو كانت هذه الفتاة المتهمة بقتل المجنى عليه – المدعو عبد الحميد لطفى – قد تركت بصماتها ، فإنهم لن يصلوا إليها إلا إذا كانت من معتادات الجريمة ، ولها بصمات محفوظة فى سجلات إدارة القلم الجنائى . . ألا تقريننى على هذا ؟

– بداهة يا عائدة . . ولكن أتظنينها من غير معتادات الإجرام ؟

– لا أدرى ، ولكن المهم . . ألست معى فى أنهم لن يصلوا إليها ، إذا لم تكن لها صحيفة جنائية مسجل فيها سابقة أو أكثر ، على أن تكون قد تركت بصماتها فى مكان الجريمة ؟

– طبعاً . . ولو أنى أشك فى أنها جريمتها الأولى . .

– ولم ؟

– من تنفذ مثل هذه الجريمة ، بهذا الإحكام والنجاح ، لا شك فى أنها مدربة على مثل هذا العمل .

– هذا . . أو نحوه ، كان رأى والدى أمس ونحن نتحدث على مائدة الإفطار.

– ماذا كان رأيه ؟

– إنها لا بد أن تكون عاهراً مدربة ، وخطرة .

وجاهدت عائدة لتبتسم ولتضيف : « ولو أنه عاد – بعد ذلك – فرجح أن تكون إحدى ضحايا المجنى عليه ، وانتقمت منه » .

وكانت الصديقتان قد اقتربتا من باب المدرج ، فأنهت ناهد الحديث ، وهما تدخلان معا ، بقولها : « على أية حال ، الجريمة مثيرة . . ولا شك فى أن سر إثارتها كون الفاعل فتاة »

– هذا صحيح .

– ولكن ، لكى يصلوا إليها ، يجب أن يتوفر لهم عنصران .

سألتها عائدة فى لهفة : » ما هما ؟ «

الأول : أن تكون قد تركت بصماتها فى مكان الجريمة . .

– والثانى ؟

– أن تكون من معتادات الجريمة كما اتفقنا ، ولها صحيفة جنائية محفوظة فى القلم الجنائى .

– هذا ما أقول تماماً يا ناهد . . لن يصلوا إليها إلا إذا كان لها صحيفة جنائية محفوظة فى القلم الجنائى . . أليس كذلك ؟

ونسيت ناهد نفسها ، وخيل إليها أنها أستاذ يلقى محاضرة على طلبته ، فراحت تتم حديثها فى نبرة جادة متئدة :

– وحيث إن الجانية لم تترك أية بصمة فى مكان الجريمة ، يمكن . مضاهاتها ببصمات معتادى الإجرام – إذا كانت منهم أو منهن – فإن التوصل إليها يصبح عسيراً ، وإن توصلوا . فمن الصعب إثبات التهمة عليها .

وكان هذا ما تسعى إليه عائدة لتسمع تأكيده من أى إنسان . .
إن صديقتها « ناهد » قد رددت ما تردده هى لنفسها . . .
فهى تريد أن تطمئن . . أن تنام . . أن تنعم بهدوء النفس والخاطر ، لتتفرغ لاستذكار دروسها ، فإن هى إلا بضعة شهور ويدهمها الامتحان ، وهذه سنتها النهائية فى الدراسة ، وهى لم تتخلف سنة واحدة منذ المرحلة الابتدائية حتى وصلت للسنة النهائية فى كلية الحقوق . . وهى حريصة على أن تنجح لتبدأ مرحلة جديدة من حياتها . .
مرحلة العمل . . ثم الزواج عندما تلتقى بالرجل المناسب .

* * *

الصحف لا تزال تتابع أنباء جريمة الأسبوع ، مقتل الثرى « عبد الحميد لطفى » ، وإن بدأت هذه الأنباء تحتل مساحات أقل مما كانت تحتله خلال الأيام التى أعقبت وقوع الجريمة مباشرة .
وشيئاً فشيئاً ، كفت الصحف عن النشر ، فأنباء الجرائم لا تنتهى ، والجديد منها يحجب القديم ويصبح أولى بالمتابعة والنشر . .
ويوم اختفت تماما أنباء هذه الجريمة من الصحف ، وقف الدكتور « نور الدين الريدى » – أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق – أمام ألف ومائتى طالب وطالبة ، يستعدون لنيل إجازة القانون بعد شهور . . وقف أمامهم قبل أن يبدأ محاضرته ، وخاطبهم بقوله :
– إنكم بكل تأكيد قد قرأتم تفاصيل الجريمة التى وقعت فى نهاية الأسبوع الماضى ، فى « فيلا » تقع عند نهاية مدينة المهندسين بالدقى ، فقتل صاحبها بطعنة خنجر من فتاة اصطحبها معه بعد أن خدرها فى

سيارته ، كما شهد بذلك أقرب أصدقائه إليه ، وأيد بواب المسكن شهادته ، كما أضاف أن هذه كانت « لعبة » سيده . أن يستدرج السيدة أو الفتاة للركوب معه ، ثم يخدرها وهى إلى جانبه فى سيارته ، ويحملها إلى بيته ليعتدى عليها . . إلى نهاية ما ورد فى الصحف . . أريد ممن استهواه الحادث منكم ، ومن شاقه التحقيق إذا كان قد تابعه يوماً بعد يوم ، أن يكتب تحليلا لهذه الجريمة ، مستنتجاً دوافعها وملابساتها والتكييف القانونى لها ، وكيف يتصرف فيها إذا كان فى مقعد النائب المحقق ، وبم يحكم على القاتلة إذا كان مكانه خلف منصة القضاء ، على ألا يزيد هذا على بضع صفحات معدودات ، وشكراً .

وبدأ الدكتور الريدى إلقاء محاضرته على طلبته .

* * *

ليلتان طويلتان أمضتهما « عائدة » فريسة القلق والتردد . .

هل تلبى دعوة أستاذها فتكتب ما اقترحه على طلبته وطالباته ، وهى واحدة منهم ومنهن . . إنه أستاذها وهى تلميذته ، وهو يحبها ويحترمها ويقدر اجتهادها وتقدمها باستمرار ، مع قلة من زملائها وزميلاتها ، وإن كان يبدو واضحاً أنه يخصها – هى بالذات – برعاية أكثر . . ربما لأنها كانت تتميز بهدوء أوضح ، وذكاء أوفر ، واستجابة أسرع ، مع ما تمتاز به من أدب الحديث والخطاب ، بصورة عذبة آسرة لافتة للسمع والنظر معا . .

كان يبدو أنها نشأت بين أبوين كريمين ، من وسط معين وطبقة معينة ، وأنهما أحسنا تربيتها ، فكانت لهما مرآة صافية تعكس ما بذلا فى سبيل تنشئتها على هذه الصورة المضيئة المشرقة . .

هى تشعر بأنها أكثر قدرة من أى محقق على تصور هذه الجريمة ، واستنباط خباياها ، لأنها عاشتها دقيقة بدقيقة ، ما عدا الفترة التى كانت خلالها تحت تأثير المخدر . . وما حدث فى هذه الفترة تعرفه حق المعرفة ، فقد لخصه اللص لها فى كلمات :

عبد الحميد أرقدها على السرير ، وخلع عنها ثوبها ، كما خلع بعض ثيابه . . وعندما هم بها ، خرج له اللص من خلف الستار الذى كان مختفياً وراءه ، وحاول منعه من الاعتداء عليها . . فاشتجرا شجار حياة أو موت ، إلى أن أجهز عليه اللص بطعنة من خنجر يحمله ، ثم سرق ما وصلت إليه يداه . . وكانت هى قد أفاقت ، فخرجت معه . .

على هذا الأساس يجب أن يتناول المحقق تفاصيل هذه الجريمة . . . فالفتاة التى كانت مع المجنى عليه لم تقتله ، ولم تسرق ماله ونفائسه . . ولكن شخصاً ثالثاً كان هناك ، فى نفس الغرفة . . وهو الذى ارتكب الجريمة .

بالتأكيد ، بكل تأكيد . . كان هناك شخص ثالث ، ويجب على المحقق أن يبدأ من هذه الحقيقةالمؤكدة ، وإلا فانه سيظل فى وادٍ والحقيقة فى واد آخر . . وإذا كانت النيابة تريد أن تصل إلى القاتل ، فلتبحث عنه بين اللصوص والقتلة المعروفين لرجال المباحث ، ولتكف عن البحث عن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه .

ووفقاً لهذا المنطق ، الذى لا يخرج بطبيعته عما حدث حقيقة فى هذه الليلة السوداء ، كتبت عائدة تحليلها للجريمة ، ولدوافعها ، ولظروفها ، وللابساتها . . وقدمته بعد أيام لأستاذها الدكتور الريدى ، أستاذ مادة القانون الجنائى .

ابتسم وهو يتناوله منها قائلاً

– سبقك بعض زملائك وزميلاتك يا عائدة ، فقد تسلمت محاولات عديدة من بعضهم ، ولو أنني – بيني وبينك – لم أجد من بينها ما يشير إلى عمق البحث وسلامة الاستقصاء وصحة رد النتائج إلى أسبابها . . ولكني أرجو أن أجد فى بحثك ما افتقدته فى أبحاث زملائك وزميلاتك .

– أطرقت عائدة فى هدوئها المألوف ، وهى تقول فى شبه همس متقطع :

– أرجو أن أكون قد . . قد وفقت يا دكتور .

ابتسم الدكتور الريدى وهو يقول لها .

– أعدك إذا أعجبنى البحث ، بأن ألخصه فى المدرج ، على مسمع من كل زملائك وزميلاتك ، مشيداً به ، وذلك فى محاضرة الغد .

همست « عائدة » بكلمة شكر ، وهى تستأذن للانصراف من مكتب أستاذها . .

وخرجت . .

* * *

فى اليوم التالى ، دخل الأستاذ الدكتور نور الدين الريدى مدرج السنة النهائية بكلية الحقوق . وقبل أن يبدأ المحاضرة ، وجه الحديث إلى طلبته وطلباته ، بقوله :

– تلقيت عدة أبحاث ممتعة عن جريمة مدينة المهندسين . . وإننى إذ أشكر كل من بذل جهداً مهما كان ضئيلا فى إعداد البحث الذى قدمه لى . فإننى أحب أن أذكر بالذات ، البحث الذى أعدته زميلتكم الطالبة « عائدة محمود فهمى » . . فأنا – وأنا أقرأ بحثها – خيل لى حقيقة أنها

كانت فى مكان الجريمة وقت وقوعها . .

« اسمعوا تحليل زميلتكم عائدة فهمى للجريمة ، وتصورها للأحداث ، واستنتاجها الذى لم يتوصل التحقيق له . .

« تقول عائدة : إن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه لا يمكن أن تقتل رجلاً قويًا فى عنفوان شبابه ، بعد أن أفاقت من المخدّر ، لأنها بالقطع كانت بعد لا تزال تحت تأثير هذا المخدّر ، ولا يمكن أن تكون بكامل قوتها وعافيتها . . وحتى إن كانت ، فإنها من المستحيل أن تتغلب على رجل قال التحقيق عنه إنه فى نحو الخامسة والثلاثين ، وإنه فارع الطول ، وافر الجسم ، قوى البنية

« تستنتج عائدة من هذا أن هناك شخصاً ثالثاً كان معهما فى الغرفة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكب جريمة القتل ، بدافع السرقة فى المرتبة الأولى . . من الجائز أن يكون القاتل أحد أصدقاء المجنى عليه ، وقد اختلفا معا على من ينال الفتاة أولاً ، والجريمة عادة تقود إلى جريمة أخرى . . فبعد أن قتل الصديق صديقه امتدت يده إلى ماله فسرقه . .

« ومن الجائز أن يكون بواب المنزل هو القاتل ، بقصد السرقة ، وهو يعلم أن سيده يحمل مالا بصفة دائمة ، لأنه يملك مزرعة تدر عليه . الآلاف . .

« ومن الجائز جدًا – وزميلتكم عائدة تميل لترجيح هذا الاحتمال الآتى . . »

وابتسم الدكتور الريدى وهو يقول :

– الواقع أن زميلتكم « عائدة فهمى » تفترض افتراضاً كان أبعد الأمور

عن ذهنى ، وهو بالتأكيد لم يطف بذهن محقق الجريمة . . وهو افتراض محتمل وواقعى .

« تقول زميلتكم إن المجنى عليه كان يحمل فى جيبه ألفى جنيه ، تسلمها ثمناً لثمار حديقة البرتقال ، كما قرر بذلك العاملون فى مزرعته وبعض ذويه . . فلم لا نفترض أن واحداً ممن يعلمون بأنه يحمل هذا المبلغ فى جيبه – وهم كثيرون – من رجال مزرعته مثلاً ، أو بعض رفاق تاجر الفاكهة الذى سلمه الألفى جنيه . لم لا نفترض أن واحداً من هؤلاء سبقه إلى داره ، ودخلها من الباب الخلفى – وهو شىء ليس صعباً – وانتظر وصول المجنى عليه ، وهو يحمل هذا المبلغ الكبير من المال ، وتربص به فى غرفة نومه – مختبئاً فى أى ركن من أركانها – حتى إذا وصل هاجمه ، ليغتصب منه هذا المبلغ . . فاشتجرا ، بدليل وجود آثار مقاومة فى الغرفة ، كما ورد فى التحقيق الذى نشرت الصحف جانباً منه . وعندما وجد اللص أن أمره سيفتضح حتماً ، وسينتهى بالقبض عليه وتسليمه للشرطة ، لجأ إلى خنجره فقتله ، وسرق ما وصلت إليه يداه ، وانصرف دون أن يراه أحد

« أما عن الفتاة ، فلا بد أنها كانت قد أفاقت من تأثير المخدر بعد ذلك ، واكتشفت مقتل صاحب السيارة الذى استدرجها لركوب سيارته ، ثم خدرها وحملها إلى مسكنه ليعتدى عليها . . فأسرعت بالخروج من باب الخدم ، حتى لا تُتَّهم فى جريمة قتل لا يد لها فيها ، ولا شأن لها بها . وبعد أن خرجت ، اكتشف البواب وصديق المجنى عليه الجريمة ، فأبلغا الشرطة ، التى بدأت التحقيق فى الجريمة .

« ومن هنا – والكلام لا يزال للدكتور الريدى ، تلخيصاً لبحث

تلميذته – ترى زميلتكم عائدة أنه لا يمكن لأى محقق يتناول هذه الجريمة بالتحقيق – للوصول إلى الجانى – أن يهدر هذا الافتراض ، افتراض وجود شخص ثالث قام بارتكاب الجريمة . . والأرجح أنه لص كانت السرقة هدفه الأول ، فاضطر لارتكاب جريمة القتل . . »

وعاد الأستاذ يقرأ مما كتبت عائدة : أما عن تصرفى فى هذه الجريمة – إذا كنت فى مكان المحقق – فإننى يجب أن أكلف المباحث بالتركيز على السعى للعثور على القاتل ، فهذا هو المهم ، لأنى أستبعد تماماً أن تكون الفتاة المخدَّرة – التى كانت مع المجنى عليه – هى القاتلة .

« وعند العثور عليه ، سيتم التحقيق معه ، وفى ضوء أقواله واعترافاته ، وما يظهره التحقيق ، يتم تكييف التهمة :

« هل هى القتل عمداً مع سبق الإصرار والترصد ؟

« هل هى ضرب أفضى إلى موت ؟

« هل كان القاتل فى حالة دفاع شرعى عن النفس ؟

« وتحال القضية إلى محكمة الجنايات لتنظرها الهيئة ، ولتحكم فيها طبق المواد التى تنطبق على أى حالة من الحالات سابقة الذكر . . »

وابتسم الدكتور الريدى ، وهو يذكر آخر فقرة فى مذكرة تلميذته ، وكانت لا تزيد على كلمات :

« أما التركيز على البحث عن الفتاة ، فهو فى تقديرى مضيعة للوقت ، وإفساح الفرصة للجانى الحقيقى لطمس معالم الجريمة : !

. . . .

انتهى الدكتور الريدى من تلخيص مذكرة تلميذته ، بمسمع من كل

زملائها وزميلاتها ، ثم توجه لهم بالحديث ، فقال :

الواقع أن عائدة قد أحسنت العرض والسرد والاستنتاج إلى حد كبير . .

وأنا شخصياً أميل إلى ما ذهبت إليه ، من أن ثالثاً كان حتماً فى غرفة الجريمة ، مع المجنى عليه والفتاة التى حملها إلى مسكنه مخدَّرة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكب الجريمة ، وسرق ما سرق مما جاء حصره فى التحقيق على ألسنة رجال مزرعة المجنى عليه وأفراد أسرته . . ولو سلك المحقق هذا الطريق ، ربما وصل إلى القاتل فى أقصر وقت ممكن ، بالرغم من الصعوبة الكبيرة التى تعترضه ، وهى عدم وجود أية بصمات يمكن أن تقود إليه ، ومع ذلك فالقضية لا تزال قائمة ولم يحفظ التحقيق فيها بعد ، لعدم العثور على الفاعل . . »

وابتسم الدكتور الريدى لطلبته ، ووضع يده فى جيب سترته الداخلى ، وهو يقول :

– لإعجابى الشديد بمذكرة زميلتكم عائدة فهمى، سأقدم لها قلمى هذا ، هدية وتشجيعاً وتقديراً لما بذلته فى إعداد هذا الموضوع من عناء جاد .

وضج المدرَّج بالتصفيق . . وتقدمت عائدة من أستاذها ، فصافحها ، وسلمها قلمه ، وهو يقول لطلبته :

– لعلكم لا تعلمون أن هذا الموسم الدراسى هو آخر عهدى بالتدريس لكم ، فلم يعد لنا غير بضعة أشهر نلتقى خلالها – فى هذا المدرج – لأننى أبلغ سن اعتزال الخدمة فى شهر يوليو القادم . . وسيكون آخر ما أعمله فى هذه الكلية العزيزة علىّ ، هو تصحيح أوراقكم وستنجحون وتتخرجون جميعاً بإذن الله . . وسيسعدنى كثيراً أن يشرفنى أى واحد ، منكم ومنكن ،

بزيارتى فى مكتبى ، إذا احتاج إلى رأى أو مشورة ، فإننى ساعمل بالمحاماة بعد اعتزالى الخدمة ، وأظنكم – جميعاً – تعرفون عنوان هذا المكتب . إنه بالمبنى رقم ٨ بشارع قصر النيل .

٩

عائدة لا تدرى أنها عندما كتبت تحليلها لجريمة مدينة المهندسين ، لتقدمها لأستاذها . . كانت متأثرة بفكرة واحدة . . أن تدافع عن الفتاة التى كانت مع المجنى عليه ، وأن تنفى عنها تهمتى القتل والسرقة ، لأنها فى الواقع كانت تدافع عن نفسها وتنفى عنها التهمتين معا . .

افترضت – للتعمية – عدة افتراضات ، ولكنها ساقت بينها الوصف الحقيقى للجريمة ، وهو دخول لص – أى لص – إلى المسكن قبل وصول صاحبه ، ليسرق ما يحمل من مال . .

وافترضت – للتعمية أيضاً – أن يكون هذا اللص أحد رجال مزرعته ، أو أحد رفاق تاجر الفاكهة ، الذى اشترى منه ثمار حديقة البرتقال . . ثم طلبت – فى نهاية المذكرة – أن يكون التركيز على البحث عن هذا اللص ، وليس عن الفتاة التى حملها المجنى عليه إلى مسكنه غائبة عن وعيها ، ليعتدى عليها . . أى ، عنها هى . .

وراحت تستعيد ما قاله أستاذها ، وهو يلخص مذكرتها لزملائها . وزميلاتها . . واستوقفتها عبارة قالها ، قبل أن يبدأ التلخيص . . قال أستاذها :

« خيل لى حقيقة أنها – أى عائدة – كانت فى مكان الجريمة وقت وقوعها » . !

هذه العبارة أقلقت عائدة ، وأحست – عندما قالها أستاذها – كما لو أن إبرة رفيعة حادة ، وخزت قلبها . . وبدأ شاغل يتسلل إلى نفسها . .

هل كانت أسيرة ما يصطرع فى عقلها الباطن ، من إحساسها بأن كل العيون عليها وكل الأصابع تشير إليها ، ولهذا كان تركيزها فى المذكرة على ذكر الحقيقة . . أن « ثالثاً » كان فى غرفة الجريمة ، وأن هذا الثالث هو الذى ارتكبها . . وكل هذا فى محاولة مستميتة منها ، لإقصاء تهمتى القتل والسرقة عنها ؟

هل بالغت فى تحمسها وهى تكتب هذه المذكرة لدرجة التورط ! . . هل ما كتبته – إذا اطلع المحقق عليه مثلاً – يمكن أن يشير إليها وإلى أنها الفتاة التى يبحثون عنها بأنوف أكثر حساسية من أنوف الكلاب البوليسية المدربة ؟ . . هل كشفت عن نفسها بما كتبت دون أن تدرى ؟

إنها لا تدرى . .

كل ما تدريه أنها أسيرة دوامة عاتية ، فى متاهات المحيطات السبعة ، تحوطها جدران هائلة عالية ، مظلمة ، مخيفة من الماء . . بلايين البلايين من أطنان الماء تحيط بها ، وهى تدور معها ، وبذات سرعتها ، لا تستطيع ولا تملك من أمر نفسها شيئاً . . انها فى قاع الدوامة . . قاع الدوامة العاتية ، فى متاهات المحيطات السبعة !

هل يستطيع بشر أن يوقف دوران دوامة ، فى مياه المحيط . أى محيط ؟ !

هل يستطيع بشر أن يتسلق الماء ؟ !

وفكرت فى أن تستأذن أستاذها لتسترد المذكرة التى قدمتها له ، ولتعلل

هذا بأنها تود أن تحتفظ بها للذكرى ، ثم لتمزقها بعد ذلك ، أو تحرقها عندما تنفرد بنفسها . . ولكنها استسخفت الفكرة فاستبعدتها ، وابتدأت تستعرض موقفها فى هدوء – حاولت أن تصنعه لنفسها ، فسألت نفسها :

– ممَّ تخافين يا عائدة ؟

البواب قال فى التحقيق إنه – لثلاثة أسباب – لم يروجه الفتاة التى دخل سيده يحملها على ذراعيه مخدَّرة : أولها الظلام الذى ما كان يمكن أن يتيح له رؤية وجهها إذا حاول ، وهو ما كان يمكن أن يحاول . . وثانيها أن وجه الفتاة كان مختفياً فى صدر سيده ، وهو يحملها على ذراعيه . . وثالثها – وهو الأهم – أنه بواب . . بواب وحسب ، وليس من شأنه – ولا يملك – أن ينظر إلى وجه سيدة يأتى بها سيده ، سواء كانت محمولة على ذراعيه ، أو تسير على قدميها بجانبه . . كبقية خلق الله ! . .

هكذا علّمه سيده منذ ألحقه بخدمته ، وكذلك علّم البستانى . . ولما سأله المحقق عما إذا كان يستطيع التعرّف على هذه السيدة أو الفتاة – إذا وقفت أمامه بين أربع أو خمس سيدات أو فتيات – أجاب بالنفى القاطع ، ثم أكد هذا ، مضيفاً بلهجته الريفية البسيطة كما ذكرت الصحف : « إنى أخاف الله ، فلا أظلم أحداً حتى لا يظلمنى أحد » !

– فممَّ تخافين يا عائدة ؟ . . مم تخافين ولم تشر الصحف – مجرد إشارة – إلى وجود بصمات للفتاة التى كانت مع المجنى عليه ، أى بصماتك . . وهذا أخطر ما يجب أن يؤخذ فى الحساب !

« خوفك إذن – يا عائدة – لا سبب ، ولا مبرر ، ولا داعى ، ولا محل له . . فاطمئنى واهتمى بدروسك ومحاضراتك ، وتفرّغى للاستذكار

فالأيام تسرقك ، والأمتحان يقترب ، وأنت تحاولين النجاح بتقدير يتيح لك وظيفة « معيد » بالجامعة . . ألا تريدين أن تكونى معيدة ، لتصبحى ضمن أعضاء هيئة التدريس فى الكلية التى أمضيت بها – طالبة – أربعة أعوام من عمرك ؟

« ما أجمل أن تقفى فى المدرج ، أمام أكثر من ألف طالب وطالبة ، لتعيدى عليهم وعليهن محاضرة الأستاذ . . فى ذات المدرج الذى جلست على أحد مقاعده طالبة ، على مدى أربعة أعوام مرت كالحلم . . هذا المدرج ذاته تقفين على منصته معيدة ، ثم مدرسة مساعدة ، ثم مدرسة ، ثم أستاذاً مساعداً ، ثم أستاذاً . .

« ولم لا ؟ . . إنك بالتأكيد ستحضرين للماجستير ، ثم للدكتوراه . . وستصبحين الدكتورة عائدة محمود فهمى ، أستاذ القانون الجنائى بكلية الحقوق ، بجامعة القاهرة . .

« ولم لا ؟ . . لم لا ياعائدة ؟ » . .

وابتسمت وهى مستلقية على فراشها ، بالرغم من القلق الذى يسمّم هناءها . والخيال يصعد بها حينا إلى ذرى الموج ، ثم يهبط بها حينا آخر إلى سحيق القاع . .

وقامت من فراشها منتصبة كالغزال ، وهى تقول فى ثقة وإيمان عميقين : « إننى بريئة وطاهرة ، والله يعلم أننى لم أقتل ، ولم أسرق ، ولن يكون . . وهو لن يتخلّى عنى أبدا ؟ » .

وهمست ، فيما بينها وبين نفسها : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » !

وأقبلت على الحياة . .

استردت الكثير من هدوء النفس ، فبدأت فى تنظيم وقتها : دراستها ، وطعامها ، ونومها ، واستذكار دروسها . . وكان هذا كله قد تعرّض لخلل مدمّر ، خلال الأسابيع التى انقضت على تلك الليلة ، التى كانت تراها على بعدين متنا قضين تناقضاً أعجزها تفسيره :

فهى تراها . . كأنها الأمس ، أمس اليوم الذى تعيشه . .

وهى تراها . . كما لو أن سنين طويلة قد انقضت عليها !

١٠

الشهور تمضى . . وعائدة ماضية فى حياتها الطبيعية . .

أب لطيف أنيق ، رقيق ، كريم ، مهذّب ، واسع الأفق ، سليم الإدراك ، يفيض قلبه حبًّا وحنانًا نحو وحيدته « عائدة » وأمها . . وقد تعلّم ، وسافر ليستزيد من العلم ، وكان تخصصه الصيدلة ، فنال فيها درجة الدكتوراه من لندن ، وعاد وأسس صيدلية خاصة به ، أسفل المسكن الذى ورثه عن والده ، فى ضاحية « جاردن سيتى » . .

زوجه – والدة عائدة – ليست غريبة عنه ، فهى ابنة خالته ، أحبها وأحبته وهو طالب ، وتزوجها وهو طالب ، وأنجبا عائدة وهو طالب ، وكان ميلادها مقدم سعد على أبويها . . فقد كان والدها فى السنة النهائية من دراسة الصيدلة ، عندما رزقه الله إياها . وكان نجاحه بتقدير ممتاز ، فأوفد فى بعثة مجانية لإتمام دراساته العليا ، عاد بعدها ليبدأ حياته العملية بنجاح كبير . .

والدة عائدة . . سيدة تفيض رقة وعذوبة وحنانا ، وقد كانت زينة أسرتها وقطتها المدللة ، ولا تزال – وقد تخطت الأربعين بسنة واحدة – العروس الجميلة التى لا يرى فيها زوجها – والد عائدة – إلا عروسه الشابة التى تزوجها منذ نحو أربع وعشرين سنة ، وكأن دخوله بها كان فى ليلة الأمس فقط . . أمس اليوم الذى يعيشه !

كانوا دائماً أصدقاء ثلاثة ، وكان جمعهم – إذا اجتمعوا فى حفل ، أو دعوة ، أو عشاء ، أو أية مناسبة من المناسبات – ملفتا للأنظار ، كل الأنظار . .

فالأب – الدكتور محمود فهمى – تتمناه بنت الخامسة والعشرين – زوجا ، بالرغم من أنه شارف السادسة والأربعين . . فهو فارع الطول مهندم أنيق أناقة عالية خفيض الصوت ، عذب الحديث ، غزير العلم والمادة ، لا يشبع المستمع إليه مهما طال حديثه وتشعب . .

والأم – فوقية هانم – صورة مضيئة للأم التى رعت زوجها وابنتها وأعطتهما كل حياتها عطاء بلا حدود . . وهى دائما محط الأنظار ، وموضع الاحترام والتقدير . . وقد سافرت مع زوجها وابنتهما ، فطافوا ثلاثتهم بأجمل بلاد الدنيا ، فجمعت من هنا ومن هناك حصيلة ضخمة من التجارب واللغات والمعارف . وكانت – كزوجها – مركز الدائرة بين جمع السيدات ، فى أى مكان تحل به ، فتجتمع حولها صديقاتها ولا يتركنها إلا إذا حان موعد الانصراف . .

والابنة – عائدة – كانت دائماً قطعة الماس النادرة الثمينة ، التى تضوى بريقاً فوق المخمل الأسود اللامع ، خلف واجهة من البلّور الشفيف

المصقول . . فى حركتها ، فى حديثها ، فى نظرتها ، فى لفتتها ، فى إيماءتها . .
وكان الناظر إليها – وهى تضع نظارة طبية رقيقة على عينيها أحياناً – يحار أمام هذا الحسن الفريد ، ولا يملك أن يقول لنفسه إنها – والنظارة فوق عينيها – أجمل ألف مرة منها عندما ترفعها عنهما . . فإذا رفعت النظارة عن عينيها ، أسرع يقول : « بل هى بلا نظارة أجمل ألف مرة . . من يستطيع أن يطيل النظر إلى هاتين العينين دون أن يصاب بإغماء » !

وهكذا يحار الناظر إليها فى جمالها ، الذى كالته السماء لها بغير حساب . فوجهها يبدو وكأن الله قد خلق كل قسمة من قسماته على حدة ، ثم صقله على حدة ، وجمّله على حدة ، وسوّاه على حدة . . وفى النهاية ضم هذه القسمات بعضها إلى بعض ، كل فى مكانه من الوجه ، فإذا بهذه الصورة الفريدة فى النهاية . . وجه عائدة ! .

وكان الجميع يطلقون على هذا الثالوث المفرح الجميل – عائدة ووالدها ووالدتها – الأسرة السعيدة . .

من كل هذا استمدت عائدة القوة والقدرة على أن تطرح خلفها الحادث الذى وقع لها ، محاولة ألا تتذكره حتى لا يعكر عليها صفو حياتها ، والامتحان على الأبواب . . .

* * *

إلى أن كان ذات يوم ، أحست فيه بأن الأيام تصالحها . . والزمن يصفو لها . . الدنيا تصيح بها ابتسمى يا عائدة . . طيبى نفساً ، واهدئى قلباً ووجداناً ! . . ذلك أن صحف الصباح اليومية الثلاث نشرت خبراً صغيراً فى صفحة الحوادث ، والخبر يقول :

« قررت النيابة العامة حفظ التحقيق فى الجناية الخاصة بمقتل الثرى عبد الحميد لطفى ، والتى وقعت فى شهر نوفمبر الماضى – حين وُجد المجنى عليه مقتولا بطعنة خنجر نافذة إلى القلب ، فى غرفه نومه ، بمسكنه بمدينة المهندسين – وذلك لعدم العثور على الفاعل . . وكان المجنى عليه قد اعتاد استدراج السيدات والفتيات ممن يعييهن العثور على سيارات الأجرة، فيعرض عليهن حملهن بسيارته إلى حيث يردن . . وعندما تركب معه السيدة أو الآنسه ، يحتال على تخديرها ، ثم يسرع بها إلى بيته ويعتدى عليها . . وقد قيدت الجناية ضد مجهول » .

. . . .

عندما فرغت عائدة من قراءة هذا القرار ، أحست كما لو أنها كانت قطعة من المطاط ظلت زمنا تحت ثقل كبير ضاغط لايتزحزح ، فانكمشت طولا وعرضا وحجما وتكوينًا، ثم انزاح هذا الثقل عنها فجأة ، فانتفضت لتعود إلى حجمها الطبيعى ، طولا وعرضا وحجما وتكويناً . .

إنها تستطيع الآن أن تتنفس بحرية . . أن تتحرك بحرية . . أن تضحك بحرية ويملء قلبها ونفسها إحساساً بمتعة الضحك وانطلاقه ! . . تستطيع أن تأكل بنفس ، أن تتحرك بنفس ، أن تستذكر دروسها بنفس ، أن تلتقى بزميلاتها وصديقاتها كما كانت تلتقى بهن قبل هذا الحادث التعس ، والبسمة تشرق على شفتيها ، والفرحة تضىء عينيها ، وحب الحياة والإقبال عليها يزيدها جمالاً وشباباً وبهاء ونضرة.

وكان اليوم يوم خميس ، يوم طلعت الصحف بهذا النبأ ، وقد قرأته وهى تجلس مع صديقتها ناهد – على مقعديهما المتجاورين دائماً فى مدرج

المحاضرات – انتظاراً لدخول الأستاذ المحاضر . . وكانت « ناهد » هى التى وجهت نظرها إليه ، وهى تتصفح إحدى صحف الصباح :

– تصورى يا عائدة . . أتذكرين جريمة مدينة المهندسين ، التى أشاد الدكتور الريدى بتحليلك إياها منذ شهور ؟ . . لقد حفظتها النيابة ، لعدم الوصول إلى الفاعل !

وكادت عائدة تهتف صائحة : « الحمد لله ! » . . كادت كلمتا « الحمد لله » تنطلقان من بين شفتيها ، ولكنها تمالكت ، وتماسكت ، وضغطت أعصابها وهى ترسم ابتسامة على وجهها ، وتسأل صديقتها فى هدوء : « حقيقى ؟ » .

قدمت ناهد لها الصحيفة ، وهى تقول : اقرئى . . هذا قرار الحفظ ! »

ولم تكد عائدة تنتهى من قراءته ، حتى دخل الأستاذ المحاضر ، فأعفاها دخوله من التعليق أو الأخذ مع صديقتها فى حديث ، قد تنزلق فيه – على لسانها – كلمة مما لا يجوز أن تنفرج عنه شفتاها . .

إنها تخاف عقلها الباطن وتخشاه . . تخاف أن يتخلى عنها . . أن يغدر بها . . أن يغافلها فيدفع إلى لسانها – دون أن تشعر – بكلمة قد يكون فيها الكشف عما تخفيه عن الدنيا بأسرها . . وتتمنى لو استطاعت أن تخفيه عن نفسها . . حتى نفسها !

وبارحت الكلية – فى ذلك اليوم – سعيدة ، فرحة ، خفيفة نشطة وجلست بين أبويها إلى مائدة الغداء ، دون أن تغيّر ثوبها ، الذى خرجت به صباحاً من البيت . . كانت جائعة ! . . وكانت تتصور أنها تستطيع أن تأكل خروفاً . . ولكنها ما كادت تشرب ملعقة من قدح الحساء الساخن

أمامها ، حتى أحست بالشبع . .

فرحتها بالنبأ – الذى قرأته متضمناً قرار النيابة بحفظ التحقيق فى مقتل عبد الحميد لطفى ، وقيد الجناية ضد مجهول – منحتها الإحساس بالشبع . . وهى تعلم أنه شبع كاذب . . هذا صحيح ، ولكنها تعلم أيضاً أنها ستأكل ، بعد أن يزول عنها أثر الانفعال الذى لازمها منذ قرأت نبأ حفظ التحقيق فى الجريمة .

قالت والدتها : « لم تأكلى ياعائدة ، مع أننى أوصيت الطاهى بالشركسية اليوم . . من أجلك ! » .

ابتسمت عائدة وهى ترسل لأمها قبلة صغيرة على الهواء ، عبر المائدة ، وتقول : « نظرة إلى عينيك يا ماما تشبعنى أكثر ، وتمتعنى أشهى من أى شركسية أو أى ألماسية !

وضحكت الأم ، وشاركها الوالد ضحكتها ، وهو يقول :

– لا يمكن ألاّ تأكلى يا عائدة فأنت متعبة ، وللتو وصلت من الكلية ، وأنت بالتأكيد جائعة . .

ثم قدم لها تفاحة حمراء نضرة ، من صحفة الفاكهة التى كانت بعيدة عنها ، عند طرف المائدة ، وهو يقول :

– مادمت لا تحسين الجوع الآن ، فلا أقل من أن تأكلى هذه التفاحة . . وإلى جانبها موزة أو موزتين ، إلى أن تحسى برغبتك فى تناول الطعام .

تناولت عائدة التفاحة من أبيها ، وهى تقول فى ابتسامتها العذبة : « شكراً يا بابا » . . ثم أضافت :

– ما رأيكما فى الآتى ؟ . . اليوم الخميس ، أعنى نهاية الاسبوع ،

فان غدا الجمعة — هل تمنحانى شرف دعوتكما الليلة إلى عشاء فى شرفة « شيراتون » المطلة على النيل ؟

ابتسم والدها وهو يقول :

— ولم لا نجعلها فى الدور العلوى ، لكى أرقص معك ومع « ماما » ؟

أفلتت عائدة التفاحة من بين أصابعها ، وصفقت بكفيها الصغيرتين فرحا وابتهاجاً ، وهى تقول : « صحيح ؟ » .

— تحت شرط واحد . . .

— إذا كان بابا سيرقص معى ، أو إذا كنت سأرقص أنا مع بابا ، فكل شروطه مجابة ، أمام هذه المتعة التى لا تطاولها متعة أخرى . . هات شرطك الواحد !

— الدعوة دعوتك ، هذا صحيح . . ولكن على أن تسمحى لى بشرف محاسبة المسؤول عن الخدمة .

— يا بابا . . ؟!

قالتها فى احتجاج مهذب رقيق ، ثم أضافت : « لم تحرمنى هذه السعادة ؟ » .

وكانت الأم ترقب المناقشة بين زوجها وابنتها ، بعينين تكاد الدموع تلمع فيهما . . إن السماء لم تعط امرأة زوجاً فى رقة زوجها وحنانه ، كما أنها لم تعط أماً ابنة فى عذوبة وشفافية ابنتها عائدة . .

أجاب الأب ابنته ، وقلبه يطل خلال عينيه : « أنا ؟ . . أنا احرمك سعادة ما يا عائدة ؟ ! . . لو سألونى بمَ تشترى السعادة لابنتك أو لأمها ، لأجبت بكلمة واحدة . . بعمرى ! » .

وهبت عائدة واقفة ، وقبلت خد والدها ، وهى تقول فى صوت طفلة : « ياحبيبى يا بابا ! » . . ثم أضافت :

– على أية حال . . المهم أنكما قبلتما دعوتى .

– وهل نملك إلا أن نقبلها ؟

– ولن نختلف على من منا يسدد الحساب . . أليس كذلك يا ماما ؟

ابتسمت الأم وهى تقول :

– الغريب يا عائدة أننى كنت على وشك أن أقترح على بابا ، أن نتناول عشاءنا الليلة خارج البيت !

وقبلت عائدة أمها ، وهى تقول : « يا حبيبتى يا ماما . . كأن كلاً منا تقرأ أفكار الأخرى » .

انعكس نبأ حفظ التحقيق على سلوك عائدة ، فبدت فى سعادتها كمن استطاعت أن تحقق المعجزة . . أن تتسلق الماء . . أن تتسلق جدران الدوامة العاتية ، التى كانت قد احتوتها فى متاهات المحيطات السبعة . . وعندما وصلت إلى السطح ، وجدت نفسها قريبة من الشاطئ ، والماء الهادئ يحملها مهدهدًا إياها ، إلى رماله الناعمة . . شيء كالحلم !

١١

الامتحان يقترب . . يبدأ بعد أسابيع ، ويستغرق شهراً . .

وهى واثقة بنفسها ، مؤمنة بأنها ستنجح بتقدير ممتاز ، وستتقدم بأوراقها – بعد ذلك – إلى الكلية التى احتضنتها طالبة ، لتعمل بها فى منصب « معيد » .

قالت لوالديها ، وهم حول مائدة العشاء ذات مساء : « لن أقبل أى عمل بعد نجاحى إلا فى كلية الحقوق ، فى وظيفة معيد » .

وقال لها والدها : « معنى هذا أنك مصمّمة على التخرّج بتقدير ممتاز ؟ »

– إن شاء الله !

ضحكت والدتها ، وهى تسألها : « – وإذا تفضلت وتنازلت عن هذا التقدير ، إلى ما دونه مباشرة ، أعنى جيد جداً ؟ »

– سأشتغل بالمحاماة . . إما فى منصب معيد فى كلية الحقوق حيث كنت طالبة ، وإما المحاماة إذا خانني المجموع . . أما أية وظيفة أخرى . . فلا !

ابتسم والدها – وهو ينزع عن موزة قشرتها – ويقول :

– والله يا عائدة . . لو نجحت بتقدير ممتاز كما تقولين ، فستكون هديتى لك سيارة صغيرة جميلة . . وهذا وعد من بابا !

صفقت كعادتها للتعبير عن سرورها ، وهى تقول :

– مهما كانت صغيرة ، فستكون فى نظرى كما لو كانت « رولز » أو « كاديلاك » .

وقبلت والدها ووالدتها ، وهمت بالقيام عن المائدة . . ولكن والدها استبقاها وهو يقول : « اجلسي ياعائدة ، فإن عندى ما أقوله لك بحضور ماما » .

وجلست عائدة ، وبدأ والدها يتكلم . . وكان مختصراً ومفيداً :

– فى كلمتين ، زارنى – اليوم – الأستاذ زكى الرفاعى ، المدرس

بكلية الحقوق وسألنى يدك ، فاستمهلته لأسألك رأيك أولاً . . وبينى وبينك ، لأستفسر عنه ثانياً . . فما قولك فى هذا ؟

مطّت عائدة شفتيها ، وحارت صمتاً ، أو صمتت حيرة ، لا تدرى بم تجيب . . فقد كان العرض مفاجأة لها . وسألتها والدتها : « أتعرفينه يا عائدة ؟ »

- طبعاً يا ماما ، فقد كان مدرّسى .

— هل فاتحك برغبته هذه قبل ذلك ؟

— لم يفاتحنى قط ، وقد يكون هذا سر حيرتى أو دهشتى .

وتطوع والدها بتفسير هذا ، فقال : « عندما بدأ يحدثنى عن رغبته ، قال لى إنه لم يحاول أن يفاتح عائدة فى أى شىء ، بل إنه لم يحاول قط أن يعطيها الفرصة لأن تلحظ عليه اهتمامه بها ، فإن دقة موقفه بالنسبة لمكانه منها — مدرّس وتلميذته — ردته عن طرق هذا الباب . . لأنه رأى أن هناك باباً أقرب وأولى بأن يطرقه ، وهو أن يزورنى باعتبارى والدها ، ليطلبها منى . . ثم أضاف قائلاً

— هذا هو الطريق السليم يا دكتور محمود ، وقد سلكته .

وفى الحقيقة أننى أكبرت فيه سلوكه ، فهو كما يبدو — شاب جاد ، يطرق البيوت من أبوابها كما يقولون . . ولكن القرار النهائى معلق بكلمة تقولها عائدة ، قبولا أو رفضاً . . ربما أعجبنى أنا — مبدئيا — ولكنه قد لا يعجبها لأى سبب . . قد تستثقل ظله ، مثلاً . . »

سألتها والدتها : « ما رأيك يا عائدة ؟ »

أجابت عائدة ، ببطء من فوجئ فلا يستطيع أن يفصل فى أمر

ذى خطر بمجرد عرضه عليه :

– والله يا ماما . . إنه – ككلٍّ – لا بأس به .

وابتسمت وهى تنظر لأبيها ، وتضيف :

– لا أعرف عنه شيئاً أكثر مما يبدو لى ولكل من معى من طلبة وطالبات . .

ثم بعد لحظة صمت قصيرة ، أردفت :

– عائلته تهمنى جداً : مَن أبوه ؟ ومَن أمه ؟ كيف نشأ ؟ كيف تربى ؟ . . . التعلم لا يخلق « إنساناً » بمعنى كلمة الإنسانية فى شمولها الواسع . . فأنا وجميع زملائى وزميلاتى سمعنا أخبارا لا شك فى صحتها ، عن أستاذ – وأكرر كلمة أستاذ – هوايته الوحيدة الزواج . . فهو يتزوج ثم يطلق بعد شهور ، حتى بلغ عدد مطلقاته – فى سبع سنوات – تسع زوجات ، وهو يبحث عن العاشرة . . وهذا فى نظرى وفى نظر أى إنسان . . حيوان ! »

أجابها أبوها برفق : « إذا وافقت مبدئياً ، أعنى فى حدود رؤيتك اليومية له ومعرفتك به ، فاتركى لى الباقى ! »

أجابته ابنته فى هدوء : « اذا أسفرت تحرياتك عنه ، عن موافقتك وقبولك إياه زوجاً لابنتك ، فلا مانع عندى من قبوله . . وأرجو أن تتاح لى فرصة الجلوس معه – هنا فى البيت – أتحدث إليه وأسمع منه ، كما يتحدث إلىّ ويسمع منى ، حتى أعرفه أكثر . . ما رأى حضرتك يا بابا ؟ وما رأى حضرتك يا ماما ؟ »

أجابها والدها ، مؤيداً فكرتها :

– هذا اقتراح فى محله . . بمجرد أن أعرف عنه كل شيء، دون أن أرى ما يمكن أن يؤخذ عليه ، أخبركما – أنت وماما – وندعوه إلى عشاء معنا فى البيت ، وبعد هذا تكون الكلمة الأخيرة لك . .

* * *

جرس المسرة يئزّ – ذات صباح – فى مسكن الدكتور محمود فهمى . وتسرع « عائدة » فترفع السماعة، وإذا بأستاذها الدكتور الريدى يهنئها بنجاحها بتقدير ممتاز ، ثم يزفّ لها نبأ يعلم أنه سيسعدها كما لم يسعدها نبأ من قبل . . لقد رُشّحت لمنصب « معيد » بكلية الحقوق ، وقد علم أن ترشيحها قد ووفق عليه بالإجماع ، وعليها أن تعدّ نفسها وتستعد بأوراقها ، حتى إذا انتهت إجازة الصيف وبدأت الدراسة ، كانت كل مستنداتها مستكملة . .

وأضاف الدكتور الريدى محدثا تلميذته : « علمت أن الأستاذ زكى الرفاعى تقدم لخطبتك ، وأنه فاز بهذا الشرف العظيم ، فهنأته بكل قلبي وقلت له : يا زكى . . إنك فزت بجوهرة ! »

وشكرت عائدة لأستاذها رقة مشاعره نحوها ، واخبرته معتذرة عن عدم دعوته فى حفل الخطبة – بأنه لم يكن – حفلاً بالمعنى المفهوم ، بل كان مجرد اجتماع عائلى صغير ، لم يستغرق أكثر من ساعة . . ولكنه – أى أستاذها – لن يكون مجرد مدعو كبقية المدعوين فى حفل زفافها . . بل إنه سيكون أحد شاهدى عقدها ، ليشرف وليبارك وثيقة زواجها بتوقيعه . .

هكذا قالت لوالدها ، الذى اعتبر هذا شرفاً كبيراً يمنحه الدكتور الريدى لابنته وتلميذته عائدة .

ولم يكد زكى يعلم بنبأ نجاح عائدة وترشيحها لوظيفة «معيد» . . بالكلية ، حتى أسرع إليها مهنئاً ، دون أن يدرى أن أستاذه وأستاذها قد سبقه إلى هذا . . ولكن عائدة – من أدب مفرط ، وذوق أصيل ، ورقة مطبوعة ، وتربية عالية وإحساس عميق بما يجوز وما لا يجوز – لم تشأ أن تفسد عليه فرحته بأنه – كما يخيل إليه – أول من يحمل لها النبأ المفرح . فأخفت عنه أنها تعلم كل هذا من أستاذها ، وتقبلت تهنئته شاكرة ، وهى تقول ، إمعانا فى مجاملته :

– إنك « قدم سعد » كما يقولون يا زكى ، فلم تكد خطبتنا تتم حتى أعلنت النتيجة ، وإذابى أنجح بامتياز ، وأرشح للوظيفة التى تمنيتها .

وأكد هو هذه الحقيقة بقوله :

– ليس مجرد ترشيح وحسب يا عائدة ، فالمعلومات التى استقيتها من أوثق المصادر ، تقول إن ترشيحك قد ووفق عليه بإجماع لم يسبق له مثيل فى تاريخ الكلية ، وسيصلك خطاب التعيين فى خلال أسابيع .

– شكراً يا زكى

ثم فى ابتسامة رقيقة : « هذه بركاتك ! »

ولم يدع زكى الفرصة تفلت منه ، فالحديث مفتوح . . الموضوع الذى كان يحاول أن يخاطبها فى شأنه مطروح بينه وبينها ، ففيم التردد ؟

– اسمعى يا عائدة . . ما رأيك فى أن نتزوج خلال هذا الشهر ؟

– هذا الشهر ؟ !

– ولم لا ؟ . . نتيجة الامتحان أعلنت ، وقد نجحت بامتياز والحمد لله والذين يرشحون للوظيفة التى رشحت لها لا ينطبق عليهم قانون الخدمة العامة ،

لأنهم فى حكم المكلَّفين ، فلم نهدر أجازة هذا الصيف وكل منا بعيد عن الآخر ، محروم منه ؟ . . نستطيع أن نتزوج خلال هذا الأسبوع ، أو الأسبوع الذى يليه ، ثم نسافر إلى الإسكندرية ، فنمضى هناك ما شئنا من الوقت ، حتى موعد بدء الدراسة بالجامعات إذا شئت . ثم نعود فتتسلمين عملك ، ثم نستوفى معا أوراق ومسوّغات التعين على مهلنا . . فكرى يا عائدة ! . . لم نضيع أشهر هذا الضيف الجميل بعيدين كل عن الآخر ؟

وأطرقت عائدة تفكر . .

هذا الرجل كله مفاجآت . . خطبته إياها كانت مفاجأة . . إعلان هذه الخطبة كان مفاجأة . . وها هو الآن يفاجئها برغبته فى أن تزف إليه خلال أسبوع أو أسبوعين ، وكانت تقدّر ألاّ يتم هذا قبل شهور . .

وأحس هو بأنها تدير شيئاً فى رأسها الصغير ، فأسرع يلاحقها :

— لا تحملى همّ شىء . . لقد وفقنى الله إلى « فيلا » رائعة ، خالية ، شاهدتها ، فأعجبتنى : وقد أعطيت البواب عشرة جنيهات ليرد عنها كل من يحاول مشاهدتها من الداخل ، بقوله إنها استؤجرت . . سأصحبك مع الوالدة اليوم ، بل الآن ، لتقولى رأيك فيها ، حتى إذا أعجبتك وقعت عقد استئجارها فوراً ، وبذلك نكون قد احتجزناها لحين عودتنا من الإسكندرية ، لنبدأ تأثيثها .

سألته وابتسامة على وجهها : « كيف وجدت مسكنا خالياً ؟ . . هذه معجزة » .

ضحك — سعيداً — وهو يقول :

– ربك يا عائدة . . ربك عندما يريد أن يسهلها ، فلا تسألى عن الأسباب !

هزت رأسها وابتسامتها العذبة تشيع بين قسمات وجهها ، وهى تقول :

– هذا صحيح . . عندما يريد الله أن يسهلها ، فعلينا أن نلغى كلمة « كيف » من اللغة . . أين هذا المسكن يازكى ؟

– فيلا رائعة عند أطراف مدينة المهندسين .

فى طرفة عين من الزمن ، أحست عائدة بوجهها يسخن ويحتقن ، وبأطرافها تبرد حتى تكاد تتجمد ، وبعرق غزير يبلل كفيها ، وقطراته تتساقط من بين أصابعها . . متناقضات غريبة ، حادة ، لا يمكن أن تجتمع قط إلا فى حالة اختلال أجهزة الجسم البشرى وغدده اختلالا مدمّرا ، يمكـــن أن يودى بحياة صاحبه . . وأحست بأعصابها تكاد تخونها فتتخلّ عنها . . ولكنها تماسكت ، وسألته فى هدوء :

– مدينة المهندسين ؟

– تصورى !

– أليست بعيدة ؟ . . أعنى منطقة بعيدة . .

– لا تبعد عن الجامعة – مقر عملنا – بأكثر من بضعة كيلومترات ، ونحن نملك سيارتين . . سيارتى وسيارتك التى سيهديك الوالد إياها هذا الأسبوع ، كما سمعت منه .

– وموحشة . .

– العمران يزحف هناك ، إلى كل شبر من الأرض يا عائدة . . اسمعى . . !

– نعم . .

– شاهديها أولاً ، وإذا لم تعجبك فلن نخسر إلا الجنيهات العشرة التي تقاضاها البواب . .

* * *

لم تحاول عائدة أن تطيل الجدل حول صلاحية هذا المسكن الذى يتحدث خاطبها عنه . . خيل إليها أنه قد يسألها : لماذا تخشين سكنى مدينة المهندسين ؟ . . هل تصورت أننى أعرض عليك سكنى « الفيلا » التى ارتكبت فيها الجريمة التى ظلت حديث الناس والصحافة أسابيع متواصلة ، فى شهر نوفمبر الماضى ؟ اطمئنى . . فأنا أعرف أنك بطلة هذا الحادث ، ولا يمكن أن أعرض عليك هذا المسكن لنبدأ فيه حياتنا السعيدة ! ! . . وأطرقت تفكر . . أيمكن أن يكون هو المسكن ذاته الذى . . ؟ !

ولم تجرؤعلى تكملة العبارة حتى فيما بينها وبين نفسها . .

نهار أسود . . مستحيل ! . . طبعاً مستحيل . .

ولكنها – مع ذلك – كان عليها أن تجاريه ، ما دامت الكلمة فى النهاية ستكون كلمتها دون غيرها ، فوافقته على أن ترى هذه « الفيلا » .

وحملتهما السيارة – ووالدتها معهما – إلى مدينة المهندسين . . إلى أطراف مدينة المهندسين . . انحرف زكى بالسيارة يميناً ، ثم يساراً ، ثم يمينا . . ثم سار فى طريق مستقيمة مرصوفة – وكانت هذه الطريق قد رصفت خلال الشهور التى انقضت منذ ليلة الجريمة – إلى أن وقف بالسيارة أمام باب « فيلا » جميلة . .

« فيلا » جميلة حقيقة . .

وقالت الأم بإعجاب : « الله . . هذه فيلا رائعة . . حديقتها جنة ! »

وابتسم زكى وهو يقول لوالدة عروسه : « عندما تشاهدينها من الداخل ستزدادين إعجابا بها » .

نظرت عائدة إلى واجهة « الفيلا » ، وسألت نفسها : « هل تكون هى ؟ »

إنها لم تر واجهتها فى تلك الليلة الملعونة ، فقد كانت فى حالة غيبوبة ، عندما دخل بها عبد الحميد ، حاملا إياها فوق ذراعيه . . إنها تتذكر منظرها من الداخل ، كما تتذكر منظر باب الخدم المؤدى إلى الجزء الخلفى من الحديقة . . أما واجهتها ، فإنها لم ترها . .

تقدم البواب من زكى رافعاً يده إلى جبينه بالتحية ، قائلاً : « أهلا سعادة البك » .

أجابه زكى : « أهلا بك يا خليفة . . افتح فالهانم تريد أن ترى الفيلا من الداخل !

أسرع البواب نحو الباب والمفتاح فى يده . .

الأم نظرت إلى ابنتها ، وهى تقول : « المدخل جميل جداً يا عائدة . . أليس كذلك ؟ »

ولكن عائدة كانت تسير كالمسحورة . . كانت تبدو كالذين يسيرون نياماً ، فيبدون فى خطواتهم كالأشباح الهائمة . وأجابت بهمهمة غير واضحة . . وأدخلت ساعدها تحت ذراع أمها تتشبث بها ، كأنها تحتمى من . . تحتمى من ماذا ؟

لا تدرى . . إنها لا تدرى . . فهى خائفة . . من غيب

مجهول ، تشعر به ولا تراه . . بل إنها تكاد تراه ، وإن كانت لا تراه !

إنها لا تعلم – حتى هذه اللحظة – إن كانت هذه « الفيلا » هي بذاتها التي شهدت فيها ، وعاشت بين جدرانها ، أسوأ وأسود لحظات حياتها . . أم أنها « فيلا » غيرها . . إنها لا تدرى . .

أدار البواب المفتاح فى ثقب الباب المصنوع من خشب البلوط ، فى لون حبة البن المحروقة ، والمصمَّم على الطراز الإسلامى أو القبطىّ لا تدرى . . إنه يبدو كما لو كان باب مسجد ، أو باب كنيسة !

منظره لم يكن مريحاً للعين ، إن لم يكن قابضاً للنفس . .

ودفع البواب المصراع الأيمن ، وهو يقولُ للضيوف : « تفضلوا ! »

وأفسح زكى الطريق لعروسه ولوالدتها ، فتقدمتها الأم ، وتبعتها عائدة ، ووراءها زكى الذى راح يثرثر شارحاً :

– هنا المدخل . . وهنا قاعة المائدة . . وهنا قاعة الاستقبال . . وهذا الممر يؤدى إلى أربع حجرات . . اثنتان منها فى الناحية القبلية للشتاء ، والاثنتان الأخريان فى الناحية البحرية للصيف .

وكانت الأم تعلق – بين لحظة وأخرى – مبدية إعجابها الكبير باتساع « الفيلا » ، وجمال هندستها . . بينما كانت عائدة تهيم فى عوالم أخرى ، تكاد تهاويلها تصل بها – فزعاً – إلى حافة الجنون !

إنها « الفيلا » ذاتها . . فهذا المدخل بذاته تعرفه جيداً ، إذ تفحصته بنظرة عجلى ، لحظة أن جلجل جرس الباب ، وهى فى طريقها مع اللص إلى المطهى ، ليخرجها من الباب الخلفى ، المخصص للخدمة وللخدم . .

وقادهما زكى فى الممر الذى يفضى إلى الحجرات الداخلية ، وهو يقول :

– أعتقد أن هذه غرفة النوم الرئيسية . . تفضلى يا فوقية هانم . . تفضلى يا عائدة . . أترىان كم هى متسعة ورحبة ؟

ودخلت عائدة متشبثة بذراع أمها . . وخيل إليها أنها تعود بمعجزة ، إلى قاع الدوامة التى تدور بها فى متاهات المحيطات السبعة . . جدران الماء العالية المخيفة المظلمة تحوطها من كل جانب ، وتطبق عليها . . إنها لا تستطيع أن توقف دوران هذه الدوامة المخيفة . . لا تستطيع أن تتسلق هذه الجدران المفزعة . . هل يستطيع بشر أن يتسلق الماء ؟

إنها كمن يرى حوتاً هائلاً – فى ضخامة سفينة – يقترب منها ليبتلعها فى ظلام الماء . . كمن يرى أخطبوطاً بشعا ، مفزعاً ، مخيفاً ، مقبلاً نحوها . . ولن تمضى لحظات حتى ينقض عليها ليعتصرها بين أطرافه الرهيبة ، قبل أن يفترسها . .

واستعادت – للحظة – ذلك المنظر المروع الذى حفر فى ذاكرتها ، ولن تستطيع قوة أن تمحوه حتى تلفظ آخر خفقة من خفقات حياتها . . منظر هذه الغرفة بما كان فيها من أثاث وستر ، وطنفسة تكسو أرضها . . وفوق هذه الطنفسة يرقد « عبد الحميد لطفى » . . والخنجر مغروس فى صدره ، والدم متجلط من حوله !

كل هذا وزكى يثرثر بمزايا الغرفة ، وأم عروسه تستمع إليه . . إلى أن التفت إلى عائدة يسألها : « أليس كذلك يا عائدة ؟ »

أجابته فى صوت كأنه آت من واد ضيق عميق ، لا نهاية له ، بين سلسلة من جبال شاهقة ، تخترق قممها السحب العالية :

– يخيل لى أنها قابضة للنفس . . غير مريحة !

ابتسم زكى وهو يقول : « غريب أنك شعرت بهذا ! »
سألته والدتها : « ولم ؟ . . أنا أيضا بمثل ما شعرت عائدة شعرت » .
– أقول لكما شيئاً . . هذه « الفيلا » قتل فيها صاحبها .
قالها وهو يضحك
وأطلقتها الأم بلا وعى : « يا مصيبتى ! ! »
وأكمل زكى حديثه : « قُتل فى هذه الغرفة بالذات . . كان يجب أن أخبركما ، إذ لا يجوز أن أخفى عنكما شيئاً » .
جاهدت عائدة لتبتسم ، وهى تقلد صيحة الأطفال المشهورة :
« يا مِّى »
وضحكت ، فى محاولة منها لإخفاء انفعالها ، وهى تقول :
– الغريب أننى أحسست ، منذ الوهلة الأولى ، برهبة غير عادية . . فالباب الخارجى يوحى – بمجرد نظرة إليه – بأنه يخفى وراءه أسراراً رهيبة !
ومطت شفتيها ، وهى تقول : « لنخرج بسرعة من هذه الغرفة المقبضة ، حتى لا نفاجأ بشبح صاحبها متسربلا بأكفانه ، يسألنا ماذا نصنع هنا . . هيا بنا يا ماما ! »

وخرج ثلاثتهم من الغرفة ، إلى الممر الذى يؤدى بهم عائدين إلى ردهة المسكن . . ومن ردهة المسكن ، لاحت منها التفاتة إلى جهة المطهى ، فسألت ، محاولة أن تغلف صوتها بكثير من عدم الاهتمام : « هنا المطهى ؟ »

وتصور زكى أنه قد يستطيع إثارة اهتمامها من جديد ، فيقنعها بقبول هذا المسكن ، فقال لها : « مطهى ممتاز والله يا عائدة . .

متسع ، مريح ، مجهزّ بالأرفف الغائره فى جدرانه ، والأبواب تحجبها وتحميها . . تفتح وتقفل بالانزلاق داخل الجدران ، على عجلات صغيرة ، حتى لا تزحم من يكون بداخله عند فتحها أوغلقها . . بابه يفضى إلى الجزء الخلفى من الحديقة ، ليسهل الخدمة . . يعنى من كله . . تعالى لمشاهدته ! . تفضلى يا فوقية هانم ! »

وتقدمهما نحو المطهى ، ثم أفسح لهما الطريق لتتقدماه . . فدخلت الأم ، ثم تبعتها عائدة . . وراح زكى يثرثر من جديد . . الأم تستمع له ، وعائدة تدور بعينيها بين أرجاء المطهى ، الذى وقفت بين جدرانه نصف دقيقة ، فى ظلام تلك الليلة المروعة ، عندما تركها اللص ليحضر لها حقيبة يدها وقد نسيتها فى حجرة الجريمة . . نصف دقيقة مر بها كأنه دهر بأكمله !

راحت تدور بعينيها ، فاستعرضت مكوناته الثابتة . . جدرانه ، نافذته العليا ، أبواب الأرفف الغائرة فى الحوائط ، والمفاتيح النحاسية بارزة منها على أبعاد متساوية . .

ثم الباب . . من هذا الباب تسللت مع اللص ، فى تلك الليلة ، التى يبدو لها أن أحداثها ستظل تطاردها إلى نهاية عمرها . . وإلا ، فكيف أمكن لخاطبها أن يصل إلى هذه « الفيللا » — هذه « الفيللا » بالذات — ليقترحها عليها مسكناً تبدأ فيه حياتها معه ؟ !

وجاءها التفسير فى الحال . . التفسير جاءها من خاطبها ، فقد سمعته يقول لوالدتها :

— لا أخفى عليكما يا فوقية هانم . . هذه « الفيللا » لم يسكنها أحد ،

منذ مقتل صاحبها بداخلها ، فى شهر نوفمبر الماضى . . حوالى ثمانية أشهر . فقد أخبرنى البواب أن كل من سمع بهذا الحادث أحجم عن سكناها ، مهما كان متحمساً فى البداية . . وأنتما تعرفان أزمة السكن الخانقة .

وأضاف زكى ، بعد لحظة : « كان حادثاً مشهوراً ، أفاضت الصحف فى ذكر تفصيلاته فى حينه . . وكانت بطلته امرأة من نوع معين ، أتحرّج من ذكر صفته فى حضرتكما ، صوناً لحيائكما . . كما أنها كانت من محترفات الجريمة ، فقد سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب بعض نفائس أخرى لا تقل قيمتها عن ألفين آخرين » .

وسألته الأم : « أذكر أننى قرأت شيئاً كهذا فى الصحف . . هل قبضوا على القاتلة ؟ »

أجابها زكى : « المدهش أن المحققين ورجال المباحث لم يهتدوا إليها حتى اليوم . . ولا أظن أنهم سيتمكنون من هذا ! » .

سألته عائدة فى هدوء « ولمَ ؟ »

– كانت فى منتهى الحرص ، فلم تترك أية بصمة تقود إليها . . ولما أعياهم البحث دون جدوى ، حفظوا التحقيق فى الجناية ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيِّدت ضد مجهول . . . وما دام التحقيق قد حُفِظ ، فقد مات الموضوع تقريباً » .

ثم توجه بحديثه إلى عائدة : « لعلك قرأت أنباء هذا الحادث ، فى حينه ، يا عائدة ؟ » .

أجابت بصوت كسلان ، لا يعبر عن شيء : « أذكر شيئاً كهذا » .

وبلا وعى منها قالت ، وهى تشير إلى الباب المؤدى إلى الجزء

الخلفى من الحديقة : « إلى أين يفضى هذا الباب ؟ »

أجابها بسرعة : « إلى الجزء الخلفى من الحديقة . . ويمكن زراعته بالخضر ، التى تغنينا عن شرائها من السوق . . فهى مساحة لا بأس بها » .

وأدار المقبض النحاسى المستدير ، وجذب الباب إليه ، فإذا بالحديقة أمام أعينهم . .

تقدمت عائدة نحو الباب ببطء . . ثم خرجت ، وهبطت الدرجات القليلة المؤدية إلى الحديقة . .

لحظات هائلة عاشتها ، وهى تتلفت حولها . . إلى جدران « الفيللا » . . إلى الحديقة . . إلى السور المحيط بها . . إلى الباب الذى مرقت منه إلى الخلاء الواسع ، فى تلك الليلة المخيفة ، ويدها فى يد اللص ، حرصاً منه على ألاّ تتعثر قدمها فى الظلام . . إلى أن وصل بها إلى العمران .

وظنها زكى تستعرض الحديقة وخضرتها وجمالها ، وهيأ له الوهم أنها راجعت نفسها فاقتنعت بصلاحية « الفيللا » لسكناهما ، فسألها : « هل غيرت رأيك ؟ »

جاهدت عائدة لتنسج ابتسامة على شفتيها ، وهى تقول :

— سأكتب إلى شركات السينما الأمريكية ، التى تخصصت فى إنتاج أفلام « فرانكشتين » ، مقترحة عليها تصوير أحد أفلام هذه الشخصية الأسطورية فى هذه « الفيللا » . .

وضحك زكى . . وفهم أن عروسه تعتذر بلطف عن سكنى هذه الدار

* * *

وهم ينصرفون من حديقة « الفيللا » ليستقلوا السيارة ، عائدة بهم إلى « جاردن سيتى » ، قالت الأم :

– أنا شخصيا ، لا أرى ضرورة لأن تبحثا عن مسكن . . فان شقتنا فى « جاردن سيتى » مؤلفة من تسع حجرات . . المبانى القديمة الفاخرة . . خشب القرو يغطى جدران الغرف إلى أكثر من نصف ارتفاعها . . حمامان فاخران ، ومطبخان واسعان ، وشرفات طويلة عريضة ، تطل على رؤوس الأشجار من جهة ، وعلى النيل من الجهة الأخرى . . فلم لا تقيمان معنا ؟ . . شقتنا أكبر وأوسع وأرحب من شقتين . . بلد ، كما يقولون . . ثم إنكما ستكونان فى عملكما أثناء النهار ، فمن سيرعى شئونكما ، ويصبح مسئولاً عن المنزل فى غيابكما ، وأزمة الخدم أصبحت تنافس أزمتى المواصلات والإسكان بعد أن فتحت المدارس والجامعات للجميع !

وكان الرأى سليما ، والفكرة لامعة ، والاقتراح فى محله وفى أوانه . . والأب – الدكتور محمود – والأم – فوقية هانم – شديدا التعلق بابنتهما الوحيدة . . وكان أكثر ما يشفقان عليها منه ، أن تتعرض لمتاعب الإقامة فى مسكن خاص بها : من الوحدة ، وندرة الخدم ، والحيرة فيمن يشرف على هذا المسكن بالمعنى الكامل لكلمة الإشراف . . فلم يكد الدكتور محمود يستمع لاقتراح زوجته ، حتى صفق – على طريقة ابنته – معجباً به ، متحمساً له ، وقال :

– غدا أصحبك يا عائدة – وماما معنا – إلى « يونتريمولى » لتختارى أثاث أجمل غرفة نوم تليق بعروس مثلك ، لنؤثث به إحدى الحجرات المطلة على النيل . .

وابتسم الوالد وهو يضيف

– وإن كان صعباً أن نعثر على ما يليق بك . . ولا عند «كريجر» فى باريس !

ابتسمت عائدة ، وهى تقول لأبيها : « شكراً » .

– وهذه الغرفة ستكون هدية منى ، لا يناقشنى زكى بشأنها . . هذا إذا لم يكن يضايقك أو يضايق زكى أن تقيما معنا . . ماما . . وأنا .

انتقلت عائدة من مكانها ، لتجلس على ركبتى والدها ، ولتضم رأسه إلى صدرها ، ولتقبله وهى تقول فى صوت تقطر البسمة منه : « شكراً يا بابا . . أنت لا تستطيع أن تتصور – ولاماما تستطيع كذلك أن تتصور – مدى الهم الذى كنت أنوء تحت ثقله ، كلما فكرت فى اليوم الذى أترككما لكى أعيش وحدى ! » .

بادلها والدها قبلتها ، وهو يقول فى حنان بالغ : « لم أكن لأتركك لتقيمى وحدك أبداً . . وكنت أعدها لك مفاجأة ، ولكن ماما سبقتنى وضيعت علىّ سعادة هذه الفرصة » .

وانتقلت عائدة لتجلس على ركبتى والدتها تضمها إلى قلبها ، وتقبل شعرها الفاحم الغزير ، الذى ورثت ابنتها إياه مع بقية مفاتنها .

وقام الدكتور محمود عن مقعده وهو يقول لزوجته ولابنته : « لحظة واحدة . . عائدة لها عندى هدية صغيرة ، سأعود بها من غرفتى بعد نصف دقيقة ! » .

وبارح الوالد الحجرة ، تاركاً زوجته وابنته فى حيرة من أمر هذه الهدية الصغيرة ، التى يتكلم عنها . . ولم تكد عائدة تسأل والدتها :

« أية هدية يا ماما ؟ » . . حتى عاد والدها ، وبين أصابعه حلقة أنيقة من الفضة ، تضم مفتاحين صغيرين ، قدمها لابنته وهو يقول :

– مفتاحا سيارتك يا عائدة . . سأصحبك عصراً إلى وكيل الشركة المنتجة ، لتتسلميها بنفسك ، ولتقوديها بنفسك ، لأننى لم أشأ أن يقودها غيرك قبلك . . ولا حتى أنا . . مبروك !

وهبت عائدة عن ركبتى أمها ، تصيح والفرحة تهزها من أعماقها : « بابا . . » .

وارتمت فى حضنه تقبله . . بينما قال :

– لم أشأ أن أهديك إياها وأنت طالبة ، حتى لا يُنْظر لك فى الكلية نظرة معينة ، كفانا الله شرها . . إلى جانب أن والدتك كانت تخشى عليك من الحسد . . اسأليها ، هى التى طلبت منى تأجيل تقديمها لك إلى ما بعد أن تتخرجى ، خوفاً عليك من العين . . وقد كان فى نيتى أن أقدمها لك بمجرد حصولك على الثانوية العامة والتحاقك بكلية الحقوق . .

وابتسم الوالد ، وهو يضم ابنته إلى صدره . .

– لا أعرف كيف أقول لك شكراً .

– لا تقوليها . . فأنا – وما ملكت يداى – ملك لك . . ولهذا المَلَك الذى أهدانى إياك !

وأومأ مشيراً إلى زوجه الجالسة ، تضع ساقاً على ساق ، كملكة على إمبراطورية مستقلة ، ذات سيادة ، لها علَم ، ولها نشيد . . .

زوجها كان دائماً العَلَم ، وابنتها النشيد .

١٢

فى حديقة فندق « البوريفاج » فى الإسكندرية ، لاحت « ماجدة » عاملة التليفون ، وهى تلوح من بعيد مشيرة إلى عائدة ، التى كانت تجلس بجانب زوجها زكى ، أمام مائدة صغيرة عليها أقداح الشاى . .

واقترب أحد القائمين على الخدمة من زكى وعائدة ، وهو يقول :

– مصر على التليفون تطلبكما يا زكى بك ، وهاهى الآنسة ماجدة تشير إليكما لتسرعا !

وأسرعا معاً إلى حجرة التليفون . . وكان الدكتور محمود وفوقية هانم على الجانب الآخر عبر الأسلاك . .

تلقت عائدة من والدها أنباء سارة . . فقد وصل خطاب اختيارها وتعيينها معيدة بكلية الحقوق ، وتسلمه نيابة عنها ، وسمح لنفسه بأن يفضه ، فقد يكون فيه ما يوجب سرعة التصرف . . وقد صح تقديره ، فإن الكلية تطلب من عائدة أوراقاً عددتها ، وهى قائمة معروفة لكل من التحق أو سيلتحق بخدمة الدولة ، تبتدئ بشهادة الميلاد ، وتنتهى بشهادة تحقيق الشخصية . . وبين الشهادتين أكثر من شهادة ، وأكثر من وثيقة ، وأكثر من مستند .

وأخبرها والدها بأنه لم يشأ أن يزعجها ، ولا أن يقطع عليها وعلى زكى شهر عسلهما السعيد ، فتولى استخراج كل هذه الشهادات المطلوبة ، ولم يبق إلا شهادة تحقيق الشخصية ، وهى الوحيدة التى لا يملك أن ينوب عنها فى استخراجها ، لأنها تستوجب وجودها بشخصها لأخذ بصماتها . .

وطلب منها ومن زكى ألا يقطعا إجازتهما ، فإنها تستطيع أن تبقى فى الإسكندرية حتى قبل بدء الدراسة فى الجامعة بأيام ، ثم تعود على مهلها ، لتستخرج الشهادة . . ولن يضيرها أويعوقها عن بدء عملها ، إذا قدمت الأوراق تنقص ورقة واحدة ، مع تعهد بتقديمها فى أجل قريب . .
وقال لها أيضاً إنه التقى – فى اليوم السابق بأستاذها الدكتور الريدى ، الذى قال له إنه لن ينسى ما عاش – وإن عاش ألف سنة – تلك اللحظة النادرة ، عندما دعى – من بين كل المدعوين لشهود زفافها – ليوقع شاهداً على وثيقة زواجها . . أحس الدكتور الريدى أنه يوقع وثيقة زواج بنت من بناته !

* * *

أمضت عائدة فى الإسكندرية الأسابيع المتبقية على بدء افتتاح الجامعة ، ثم عادت مع زوجها إلى القاهرة .
فى اليوم التالى لوصولها ، توجهت إلى كلية الحقوق لتحية زملائها وزميلاتها وأساتذتها ، ثم توجهت إلى الموظف المختص بتسلم الأوراق التى كلفت بأحضارها . فاستقبلها استقبالاً حاراً ، حافلاً وهو يقول :
– مبروك يا أستاذة عائدة . . كلية الحقوق شرفت والله العظيم ، شرفت بتخريج حضرتك ، والهيئة التدريس أن تفتخر بضمك إليها . .
وأحست عائدة بالخجل يبهظها ، فهمست فى حياء :
– شكراً يا أستاذ فكرى . . أشكرك من كل قلبى .
وراح يؤكد مشاعره نحوها بقوله :
– لقد كان الإجماع رائعاً على اختيارك معيدة من معيدى ومعيدات

الكلية . . لم يعترض عضو واحد من أعضاء المجلس على اختيارك بل كان إجماعاً . . كان إجماعاً بالإجماع والله العظيم ! .

وابتسمت عائدة للتعبير الغريب . . إنها - لأول مرة - تسمع عن إجماع بالإجماع . . لو أن هناك إجماعاً بالإجماع ! . . لعله حماس الموظف المختص ، ورغبته الصادقة فى التعبير لها عن فرحته بنجاحها الباهر ، وباختيارها لوظيفة لا يقع الاختيار على من يشغلها إلا بعد أن تتوفر له ، وفيه ، شروط صعبة ومعينة . .

واتسعت ابتسامة الأستاذ فكرى ، وهو يقول :

- أنا فى خدمتك يا أستاذة عائدة . . الكلية كلها فى خدمتك . . مرى بما تشائين !

- العفو يا أستاذ فكرى . . إنما جئت لأقدم الأوراق المطلوبة .

- فوراً . . هذا ملف أعددته لك منذ شهر والله ، انظرى هذا اسمك مكتوب عليه . . الأستاذة عائدة محمود فهمى . . هل الأوراق معك ؟

- معى يا أستاذ فكرى . . هاهى ذى فى هذا الظرف ، ولوأنها فى الحقيقة تنقص مستنداً واحداً . .

ابتسم الأستاذ فكرى وهو يقول : « أعرفه . . إنها شهادة تحقيق الشخصية . . يسمّونها الصحيفة الجنائية ! » .

ابتسمت عائدة وهى تقول : « كيف عرفت أنها المستند الوحيد الناقص ؟ »

- لست وحدك التى أحضرت أوراقها تنقصها هذه الشهادة بالذات . .

- صحيح ؟

– إجراءات تصعد بروح الإنسان إلى أنفه ! .
– لست وحدى إذن . .
– كثيرون غيرك مثلك .
– والعمل ؟
– لا يهمك . . سأتسلم منك هذه الأوراق ، وسأعطيك إيصالاً بها ، ولا يبقى إلا شهادة الصحيفة الجنائية ، وشهادة التخرج « الليسانس » . وهذه الأخيرة ،لست مسؤولة عن التأخير فى تقديمها ، مادامت الكلية لم تسلمك إياها بعد ولن يكون هذا قبل شهور . .

وضحك الأستاذ فكرى من قلبه ، وهو يقول فى ثرثرة الإنسان المتوكِّل :

– « س » سؤال : لماذا يتساهلون فى عدم تقديم شهادة تخرج ؟ . « ج » جواب : لأنهم – أعنى الكلية – جهة إصدارها ، ويعرفون أن العيب عيبهم ، وأن التأخير منهم . . « س » سؤال : فلماذا إذن يتشددون ، إذا كان التأخير متعلقاً بغيرها من المستندات ؟ . . « ج » جواب ، لا جواب . . ! » .

وضحكت عائدة ، وشاركها الأستاذ فكرى الضحك ، وهويقول :

– على مهلك يا أستاذة عائدة ، ولا يهمك . . إنك ستحضرينها يوماً ما ، هذا ما لاشك فيه . . فهل طارت الدنيا . . أم طارت الدنيا ؟ !

وتناول منها الشهادات والمستندات التى كانت تحملها ، وراجعها مقارناً إياها بقائمة الحصر التى أمامه ، وسلمها إيصالاً بالاستلام ؛ فشكرت له رقته البالغة ، ثم ودعته ، وهو يقول من قلب صاف : مع السلامة يا أستاذة عائدة . . مع السلامة .

ثم بينه وبين نفسه ، وهي تبتعد : « آه . . يارب يامنى يابنتى . . يارب أعيش حتى أراك مثل الأستاذة عائدة . . ليس بكثير على الله يا ابنتى . . ليس بكثير على الله ! » .

* * *

عائدة زينة كلية الحقوق . .

ليس بين هيئة التدريس وحسب ، بل بين الطالبات والطلبة ضمناً . . فهى تقارب الكثيرين والكثيرات منهم ومنهن سناً . .

الكل يحبها ويحترمها ، ويسعى إلى مودتها ، وإلى الإعراب عن حبه لها وتقديره واحترامه إياها . . وهى ، بلطفها ورقتها وشفافيتها ، استطاعت أن تجمع الجميع حولها . .

وكان زوجها – وهو ضمن أعضاء هيئة التدريس – محسوداً ، لأنه كان أسبق الجميع إليها ، ففاز بها !

وعائدة تؤدى عملها سعيدة بلا حدود ، فهى لا تزال تفيض شباباً ، وصحة وعافية ، وحماساً ، وإقبالاً على الحياة . . وهى ترى أن تحققٌ ذاتها ، وتثبت لطلبتها ولأساتذتها أن اختيارها معيدة كان اختياراً صائباً ، وفى محله ، وأنها أهل لهذه الوظيفة . . وقد حققت فى شهور قليلة ، ما صممت على تحقيقه منذ وضعت قدميها على مدخل المدرج – لأول مرة – لتعيد على الطلبة المحاضرة التى سبق للأستاذ المحاضر أن ألقاها .

وعائدة بحكم تربيتها منذ طفولتها – وقد تعودت النظام والترتيب ودقة المحافظة على المواعيد – عملت على أن تقسم وتنظم أوقاتها خلال ساعات اليوم ، بليله ونهاره . . فاستطاعت أن توفق بين عملها والتزامها

نحوه من جهة ، ونحو زوجها وأبويها من جهة ثانية . .

كانت تعيش ملء شبابها وجمالها وآمالها . . ملء صحتها وعافيتها ونشاطها وعنفوانها . . كانت تعيش ملء حياتها جميعاً ، طولا وعرضاً ، بين زوج يحبها وتحبه ، وأبوين يتمنى كل من يراهما لو كان ابنا لهما أولو كانا أبويه . .

وفى ذات يوم ، مر الأستاذ فكرى بأعضاء هيئة التدريس الجدد ، الذين عينوا مع عائدة – أوالذين عينت عائدة معهم – ورجاهم ضرورة استكمال الشهادة التى تنقص أوراق كل منهم بلا استثناء . . وهى شهادة الصحيفة الجنائية ، فوعدوه بأنها ستكون على مكتبه خلال أسبوع ، واتفقوا فيما بينهم على أن يلتقوا فى الحادية عشرة ، من صباح اليوم التالى ، فى حجرتهم الخاصة فى الكلية ، ثم ينتقلوا جميعاً إلى إدارة تحقيق الشخصية ، للانتهاء من هذه المهمة . . ومن يملك منهم سيارة ، فليحمل معه من الزملاء أوالزميلات من لا سيارة له . . والتقوا فى الموعد المتفق عليه – ضحى اليوم التالى – وتوجهوا معاً فى سيارتين ، كانت سيارة عائدة واحدة منهما ، وانتهوا من المهمة فيما لا يزيد على نصف الساعة . .

وفى طريق عودتهم إلى الجامعة ، دعتهم عائدة لتناول شراب مرطب ، مع قطعة من الحلوى ، فى مقصف الطابق الأسفل لفندق « شيراتون » . . ثم عادوا إلى الكلية ، حيث انصرف بعضهم إلى عمله . . وعاد بعضهم إلى بيته ، لأنه لم يكن لديه عمل فى ذلك اليوم . . وكانت عائدة من هذا البعض .

١٣

عائدة ، عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس .

قبل حلوله بأسبوع ، قال لها أبوها :

– هذا أول عيد من أعياد ميلادك ، يحل بعد زفافك وتعيينك معيدة فى الكلية ، التى أمضيت فى مدرجاتها – طالبة – أربعة أعوام من عمرك . . ولهذا يجب أن نحتفل به احتفالاً حافلاً . . سألتها والدتها : « أتحبين أن نقيم هذا الحفل هنا فى البيت ؟ . . أم فى مكان آخر ؟ . . أحد الفنادق الكبرى مثلاً ؟ »

ابتسمت عائدة . . وكان زوجها زكى يستمع إلى الحديث صامتاً ، وهو يبتسم دون أن يعلق بكلمة واحدة . . إن والدى زوجته يقترحان حفلاً لا تقل تكاليفه عن مائتين أو ثلثمائة جنيه . . رقم يحدده عدد المدعوين ، إذا أقيم فى أحد الفنادق الكبرى ، كما تقترح والدتها . . « مريديان » مثلاً ، أو « هيلتون » ، أو « شيراتون » . . وهذه لغة لا يحسن التعامل بها . . فأحس بأنه يجب أن يكون مستمعاً فقط . . أن يكون مستمعاً ، وليس أكثر من مستمع . .

وأجابت عائدة والدتها : « والله يا ماما . . أنا لا أحس بأننى على سجيتى وراحتى الكاملة – فى مثل هذه المناسبات – إلا هنا . . فى بيتنا ! »

ابتسم والدها وهو يقول :

– الاختيار متروك لك يا عائدة .

– أنا شخصياً أفضل البيت .

– خلاص يا محمود ! . . .

قالتها الأم ، ثم أضافت : « كما تحبين يا عائدة . . سنقيم الحفل هنا ، وسأوصى هيلتون أوشيراتون أو مريديان – أيها يقدم لنا خدمة أسرع وأسهل – بإعداد كل شيء وإحضاره يوم الخميس القادم . . كم عدد مدعويك ؟ »

هزت عائدة كتفيها فى طفولة عذبة ، وهى تقول :

– لا أدرى يا ماما . . ولكنى بالتأكيد – إن شاء الله – سأدعو الدكتور الريدى وحرمه .

ابتسم والدها ، وهو يقول مدللا إياها :

– لا تفوتك شاردة من الذوق ياعائدة !

ردت عائدة التحية إلى والدها : « تربيتك يا بابا ! »

ولكن الوالد أشار إلى زوجه ، وهو يقول :

– بل تربية « ماما » فهى أم الذوق كله . . احصرى عدد مدعويك ، وأخطرى ماما به . .

ثم بابتسامته العذبة تحول إلى زوجه قائلاً :

– وأنت يا « ماما » . . أضيفى إلى هذا العدد ما يساوى عشرين فى المائة منه احتياطاً .

* * *

عائدة . . عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس .

اليوم خميس . . ولا محاضرات عليها أن تعيدها ، بعد أن يلقيها الأستاذ المحاضر ، غير محاضرة واحدة ، موعدها الحادية عشرة ظهراً ،

تعود بعدها إلى البيت .

فى الصباح الباكر ، قبلها والدها ، ورشق فى صدر ثوبها رصيعة[١] منمنمة من البلاتين ، يتوسطها فص من الماس ، وهويقول لها : « كل سنة وأنت طيبة ! »

وقبلتها والدتها ، وعلقت بأذنيها قرطين ، وحول عنقها عقداً . . وكان القرطان والعقد توائم الرصيعة ، فأصبحت القطع الأربع طاقماً كاملاً متماثلا ، لا يبيعه أى جوهرى إلا صفقة واحدة .

عائدة أدركت هذا من نظرة . فهى خبيرة بهذه الأشياء الثمينة الجميلة ، وخبرتها من خبرة والديها . . فلمعت الدموع فى عينيها ، وأمها تقبلها قائلة : « كل سنة وأنت طيبة يا عائدة ! »

ثم قبلها زكى – زوجها – وقدم لها قارورة عطر فاخر ، كانت قد شاهدتها مرة خلف واجهة أحد المتاجر الكبرى ، وأحس لحظتها أنها ضمن عطورها المفضلة ، فاشتراها فى اليوم التالى ، وحفظها فى درج مكتبه بالكلية ، إلى أن يحين عيد ميلادها ليقدمها لها . . وكان يعرف أنه بعد أيام .

قدم لها زجاجة العطر الفاخر ، وهو يقول : كل سنة وأنت طيبة ! »

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم . . الرابع من مارس

ومنذ السابعة مساء ، بدأ المدعوون يتوافدون على الدار . . لم يزد عددهم على نحو الخمسين ، بين رجل وسيدة وفتاة ، من الأقارب والأقرباء والأصدقاء ، والزملاء والزميلات . .

---

(١) الرصيعة أى « البروش » – « معجم ألفاظ الحضارة » : محمود تيمور

كانت عائدة فى استقبالهم . . والأم ترحب بهم . . والأب يحيى ويجامل ويبتسم ، سعيداً بابنته – وحيدته – يدعو لها من قلبه دعوات آباء الدنيا بأسرها لبناتهم وأبنائهم . . .

ثم انفرد بالدكتور الريدى – أستاذ ابنته ، وشاهد عقد زواجها – وراح يتحدث إليه حديث القلب للقلب ، فهو يعرف مدى حب هذا الرجل لابنته ، وتقديره واحترامه إياها ، كما يعرف كيف تبادله ابنته صدق هذه المشاعر . .

وأشارت الأم إلى ضيوف ابنتها – وقد اكتمل عددهم – لينتقلوا إلى موائد الشاى الصغيرة الأنيقة ، المتناثرة بذوق عالٍ فى بهوين واسعين متصل كل منهما بالآخر . . حول كل مائدة أربعة مقاعد . . وفى الصدر مائدة طويلة ، طويلة ، طويلة . . صفت فوقها ألوان الحلوى ، والفاكهة وعصيرها ، والفطائر والشطائر والمملحات ، وغيرها وغيرها مما يحار فيه الضيف ، وقد وقف خلف هذه المائدة الطويلة ، الطويلة ، الطويلة ، ستة شبان فى ثياب مُنَشَّاة أنيقة ، لخدمة الضيوف . . ما على الضيف إلا أن يشير إلى ما يريد ، فيسرع أحد هؤلاء الشبان إلى ملء صفحة بكل ما يريد ، يقدمها له . .

* * *

عائدة . . عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس

وقفت أمام كعكة كبيرة تتوسط المائدة الطويلة ، الطويلة ، الطويلة ، وقد رشق فى سطحها أربع وعشرون شمعة صغيرة ، تشير إلى أربع وعشرين سنة تتمها عائدة من عمرها اليوم . . وكانت الشموع من لون واحد . .

اللون الأبيض .

كأنها عروس . . كأن عائدة عروس فى ليلة زفافها !

تقدم والدها فأشعل الشموع الصغيرة ، وأشار لأحدهم ليطفئ نور البهو ، فإذا بالظلام يحيط بالجميع ، ولهب الشموع الصغيرة يتراقص ، فيعكس ظلال الحاضرين — المحيطين بعائدة — على جدران البهو وما به من قطع الأثاث وموائد الشاى المتناثرة . . وإذا بهذه الظلال تتمايل وتتكسر ، ثم تعتدل وتستقيم ، فوق كل ما انعكست عليه ، مع نسمات الهواء الرقيقة ، التى كانت تعبث بلهب الشموع . .

وارتفعت أصوات الحاضرين بالأغنية الإنجليزية المعروفة :

« عيد سعيد لك . .

« عيد سعيد لك . .

« عيد سعيد لعائدة . .

« عيد سعيد لك ! »

وانحنت عائدة على الشموع فأطفأتها ، والجميع يصفقون . .

وأضيئت أنوار البهو ، وعاد الضيوف — كل إلى مكانه — يحمل صحفة ملأى بما اختاره مما على المائدة الرئيسية الطويلة ، الطويلة ، الطويلة . .

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس . .

راحت تمر بضيوفها حول الموائد الصغيرة ، لتسأل إن كانت تستطيع أن تقدم شيئاً لأحد منهم ، فكانوا جميعاً يسألونها أن تجلس معهم قليلاً ، وكانت تحقق لهم رغبتهم وهى تبتسم فى حياء شديد . .

وكانت والدتها تقوم بذات المهمة بين حين وحين ، ثم تعود لتجلس إلى قرينة الدكتور الريدى ، التى صحبته إلى حفل عيد ميلاد أقرب تلميذاته إلى نفسه . .

وكان زوجها زكى يجلس مع والدها والدكتور الريدى ، وقد راحوا يتحدثون فيما يتحدث عنه الناس ، فى مثل هذه المناسبات . .

* * *

عائدة عيد ميلادها اليوم ، الرابع من مارس . .

فجأة تسلل أحد الخدم إلى البهو ، واقترب من الدكتور محمود — والد عائدة — وانحنى على أذنه ، وهمس بشيء لم يسمعه غيره ، فقام من فوره مستأذناً الدكتور الريدى وزوج ابنته . . كان هناك ضيف يريد أن يراه ، فقام ليرى الضيف .

فى غرفة الانتظار الصغيرة ، القريبة من باب المسكن ، وجد الدكتور محمود نفسه — وجهاً لوجه — أمام ضابط من ضباط الشرطة برتبة المقدم . . وهبّ الضابط واقفاً بمجرد أن دخل عليه ، وقدم له نفسه :

— أستأذن فى أن أقدم لك نفسى يا سيدى . . أنا المقدم فاروق الحسينى ، من قوة مباحث القاهرة .

أجابه الدكتور محمود فى أدب ملحوظ :

— أهلا بك يا سيادة المقدم . . تفضل . . اجلس !

جلس الضابط وهو يسأل الدكتور محمود :

— هل سيادتك الدكتور — صيدلى — محمود فهمى ؟

— أنا محمود فهمى

– والد السيدة عائدة فهمى ؟ . . أقصد عائدة محمود فهمى . المعيدة بكلية حقوق جامعة القاهرة ؟

– أنا محمود فهمى . والسيدة عائدة ابنتى الوحيدة ، وهى بالداخل مع ضيوفها تحتفل بعيد ميلادها . . هل أستطيع أن أعرف طبيعة المهمة التى من أجلها تشرفنى بالزيارة ؟ . .

– سيدى الدكتور . . إننى فى شدة الأسف ، لأننى – بيقين – قد سبّبت ، وسأسبّب لكم ولكريمتكم إزعاجاً بزيارتى هذه . .

– تكلم يا سيدى . . أرجوك .

أخرج الضابط من جيبه ورقة مطوية ، بسطها وقدمها للدكتور محمود وهو يقول :

– معى أمر من النيابة العامة باستدعاء السيدة عائدة فهمى .

انعقد حاجبا الدكتور محمود ، وانفرجت شفتاه من دهشة مفاجئة ، وهو يقول : « نيابة ؟ ! »

– لأخذ أقوالها . .

– فى أى شىء؟

– لا علم لى يا سيدى .

– سيدى . . أرجوك . . لاتنس أننى أب ، فأرجو منك أن تتكلم . . أستطيع أن أعتبرك فى حكم أخ أصغر لى ، فأرجو منك أن تتكلم !

– أقسم لك . . لو علمت ما أخفيت عنك .

همس الدكتور محمود باسم وحيدته : عائدة ؟ ! »

– أعتقد أنه خير إن شاء الله . . هى موجودة كما قلت لى سيادتك ؟

– موجودة طبعاً ، وليس هناك – مطلقاً – ما يدعو لإنكار وجودها . . هل أستطيع أن أستأذنك لأنهى لها الخبر ، فتستعد فى دقائق لنصحبك إلى النيابة ؟

– بلا أى شك . . تفضل يا سيدى

وبارح الدكتور محمود حجرة الانتظار الصغيرة ، تاركاً فيها الضيف الغريب المفاجئ . . ولم يفته – وهو يتجه إلى مكان الحفل – أن يأمر أحد الخدم بأن يقدم له قدحاً من الشاى وبعض الحلوى . .

وعاد إلى البهو – مكان الحفل – وأشار لابنته – من بعيد – إشارة لم يلحظها أى من المدعوين أوالمدعوات ، لتتبعه ، فاستأذنت ممن كانت تتحدث إليهم ، وتبعت والدها إلى غرفة مكتبه . .

غرفة المكتب هادئة لا تصل إليها ضوضاء المدعوين . .

وعندما أغلق الدكتور محمود بابها – بعد أن دخلت عائدة – أصبح الهدوء صمتاً مطبقاً . .

الغرفة لا تضم غيرهما . . الوالد وابنته .

فى لمحة عين ، قرأت الابنة فى وجه والدها شيئاً أقلقها ، وإن لم يخطر لها أن هذا « الشيء » قد يتعلق بها . . فسألته فى قلق ظاهر : « أبى . . ماذا هناك ؟ »

أشار إلى أحد المقعدين أمام مكتبه ، وهو يقول لابنته : « اجلسى يا عائدة ! »

وجلس هو على المقعد المقابل لمقعدها . .

أحست بقلقها يتضاعف ، فعادت تسأل والدها :

– بابا . . هناك شئ ما بكل تأكيد . . أرجو منك أن تتكلم !

سأتكلم بطبيعة الحال يا عائدة ، وإلا ما استدعيتك . . ولو أنى أعتقد أن هناك خطأ ما . .

–ما الخبر ؟

– فى حجرة الانتظار الصغيرة ، يجلس الآن ضابط من ضباط المباحث العامة ، يحمل أمراً من النيابة باستدعائك . .

* * *

فجأة أحست بحلقها يجف . . بغصة تكاد تخنقها . . بالغرفة – بكل محتوياتها – المكتب ، المقاعد ، النوافذ ، الستر ، السقف بما يلتصق بأركانه الأربعة ، وبما يتدلى من وسطه من مصابيح كهربية . . الجدران بالصور الثلاث الكبيرة المرسومة بالزيت ، والمعلقة عليها – صورتها وصورة والدتها على الجدار المقابل لوالدها عندما يجلس خلف مكتبه – ثم صورته هو شخصياً فوق رأسه ، على الجدار الذى خلفه . .

أحست – بل رأت – كل هذا يدور ويدور ، ومع كل خفقة من خفقات قلبها ، تزداد سرعة الدوران . .

ولكنها تماسكت ، وبذلت جهداً خارقاً ، لتقول فى همس يكاد يكون آتياً من قاع المحيط : « النيابة ؟ ! »

إن والدها لا يعلم شيئاً عما تخفيه ابنته . . خاطر واحد خطر له ، فتصوره الاحتمال الوحيد الذى يمكن أن تستدعيها النيابة بسببه لسماع أقوالها ، فسألها :

– هل صدمت شخصاً ما بسيارتك – مثلا – وأصيب إصابة بالغة ،

ولهذا يريدون استجوابك ؟

انهارت عائدة فجأة . . لمعت فى عينيها دموع خائفة . . ارتعدت شفتاها – وهى تقاوم مقاومة هائلة – لتتحكم فى حركتهما ، وقد فقدت السيطرة عليهما تماماً . . وبدأ كيانها الصغير الدقيق يهتز انفعالاً . .

ونظرت إلى والدها . . واجهت عينيه وقد أتسعت عيناها ، فى نظرة صريحة واضحة صادقة ، تزفها الدموع ، وكأنها تقول : « حان الوقت لأقول لك كل شىء » .

وأحس الأب بأن هناك شيئاً أكثر وأكبر مما تبادر إلى ذهنه ، فسألها واللهفة فى عينيه ، والاهتمام فى صوته ، والقلق يرسم خطوطه الحادة على وجهه :

– عائدة ! . . ما بك يا حبيبتى ؟ تكلمى !

انفجرت باكية . . فقام عن مقعده ، ووقف بجانب مقعدها ، وأخذ رأسها بين ذراعيه ، وهو يمسح بكفه على شعرها حانيا . . ثم انحنى على جبينها يقبله وهو يقول : .

– لا تنزعجى يا عائدة . . قولى لبابا كل شئ وأنت مطمئنة !

وأخرج من جيب الصدر منديله الأبيض الناصع ، فقدمه لها لتلتقط فيه دموعها ، ولتزيلها عن خديها . .

عاد فجلس على مقعده المقابل لمقعدها ، وهو يسألها :

– هل تفضلين أن تستمع ماما معى لحديثك فأدعوها ؟ أم نؤجل هذا لوقت آخر ؟

– بل أفضل أن تكون معنا الآن . . لقد أخفيت مأساتى عنكما معا . .

فإذا ما فرضت على الظروف إعلانها . فيجب أن يكون إعلانها إليكما معا . .

– وزكى ؟

– زكى ، أرى أن يصحبنا إلى النيابة ، ليستمع إلى القصة أمام المحقق . فإننى يجب أن أقف على سلوكه عندما يستمع إليها ، فعلى ضوء هذا السلوك قد تتحدد حياتى معه . . .

ازداد القلق وضوحاً على وجه الوالد ، وهو يسأل ابنته :

– هل الأمر خطير إلى هذا الحد يا عائدة ؟

– ادع والدتى دون أن تستلفت نظر أحد من ضيوفنا المدعوين ، لأقص عليكما القصة ، وسأترك لك الحكم على مدى خطورتها .

ثم أضافت بعد لحظة صمت قصيرة :

– أنا شخصياً مجنى علىّ ولست جانية . . والنيابة لا تعرف الحقيقة !

. . . .

ونهض الدكتور محمود ، فبارح غرفة مكتبه ، ثم عاد بعد دقائق تصبحه زوجته .

ومهد الزوج للموضوع ، حتى يهيىء زوجته لاستماع شيء قد يزعجها قليلاً . . ثم بدأت عائدة تقص القصة على والديها بكل حذافيرها . . بكل أمانة ، بلا اختصار . . بلا حذف . . بلا بتر . . بلا خجل ، فهى لم تأت بإرادتها أمراً تخجل منه .

وفى النهاية ، أكدت أنها لم تترك أى أثر يمكن أن يقود إليها . . لم تترك بصمة ، لم تترك شعرة ، لم تترك زفرة من زفراتها . . والصحف جميعها

أجمعت – فى حينها – على أن المحققين لم يعثروا على أى أثر ، وأن المتهمة لم تترك أية بصمة يمكن أن تقودهم إليها ، إلى جانب أن بصماتها غير محفوظة – بداهة – ضمن محفوظات القلم الجنائى ، بين بصمات أصحاب وصاحبات السوابق ، حتى يمكن مضاهاتها بالبصمات الملتقطة من مكان الجريمة . . إذا كان لها بصمة فى مكان الجريمة .

وأطرقت برأسها ، وهى تقول فى همس :

– هذه هى القصة كاملة . . ولقد اكتشفت – الآن فقط – أننى ارتكبت خطأ فادحا ، لأننى لم أطلعكما عليها فى ليلتها . . ولكنى لم أكن أدرى ماذا أقول ؟ ! . . ماذا أفعل ؟ ! . . كيف أتكلم ؟ ! . . كيف أتصرف ؟ ! . . كيف أفزعكما – ولا أقول أزعجكما – بحادث مروع كهذا يقع لى . . ورأيت أن أتحمله وحدى فى صمت ، وقد شجعنى على هذا ، التاكيد المتواصل فى الصحف على أن القاتلة المزعومة – التى هى أنا – لم تترك أية بصمة من بصماتها فى مكان الجريمة .

وشدت عائدة قامتها ، وشهقت شهيقا عميقاً ، فملأت بالهواء صدرها ، وهى تقول : « أقسم لك يا بابا . . »

أسرع فرفع كفه أمام وجهها بلطف ، وهو يقول :

– لا تقسمى فأنت صادقة ، والأمر واضح ، والقصة عادية ومألوفة ، ويمكن أن تقع لزوجة أو ابنة أو شقيقة المحقق الذى سيحقق معك . . إننا – مع الأسف المحزن الشديد – نعيش هذه الأيام حياة الغاب . . فنحن نقرأ فى كل يوم عن مثل هذه الحوادث . . احتيال أى رجل على أية سيدة لتركب إلى جانبه فى سيارته ، ليغتصبها ، الفرق الوحيد بين رجل

ورجل ، أن أحدهما يصل إلى غايته بهدوء ، مثل ما كاد يحدث فى حالتك ، والآخر لا يرى حرجاً من استعمال العنف والقسر والضرب ، الذى يصل أحياناً إلى استعمال السلاح . . سكين مثلاً !

وأطرق الدكتور محمود قليلاً ، ثم قال لابنته فى إحساس بالغ بالقهر مما جرى لها : – « إن هذا اللص الذى أنقذك – فى اللحظة الأخيرة – قد جنبك عار الأبد ! » .

– لقد قلت له هذا .

– هو لص باعترافه . . هذا صحيح ، ولكنى – مع ذلك – أراه أعفّ من السيد الذى أراد أن يغتصبك وأنت تحت تأثير المخدر . . أعفّ ألف مرة !

– قالها فى نفسه . . نظر إلى الجثة غارقة فى دمائها تحت قدميه ، وقال : أنا لص ، هذا صحيح . . ولكنى أشرف منه ألف مرة » !

مط الدكتور محمود شفتيه وهو يقول فى حيرة من يكاد الذهول يذهب بعقله :

– مثل هذا الرجل لا يعف عن اغتصاب امرأة ميتة . . فالمخدَّرة فى حكم الميتة !

– هذا صحيح .

– شيئان يا عائدة آخذهما عليك . .

– أنى ركبت مع رجل غريب ؟

– هذه واحدة . .

– حذّرنى اللص من تكرارها ، وقال لى بالحرف الواحد : لو اطلعك

من يدعوك إلى ركوب سيارته على بطاقته الشخصية ، وقرأت أمام خانة المهنة أنه نبي ، فلا تركبي معه ، فلسنا فى عصر الأنبياء . . والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيچو » أو « المرسيدس » .

– هو على حق .

– والثانية ؟

– أنك لم تخبريني بالحادث فى ليلتها ، كما قلت الآن .

– لم أجد الشجاعة .

– أستطيع أن أقدر هذا . . ولكنك لو كنت قد قلت لى ، لذهبت بك إلى النيابة فى نفس الليلة ، لتروى لمن سيستمع لأقوالك كل القصة – كما رويتها لى ولوالدتك الآن – ولا نتهى كل شيء فى ساعتين . .

ودق ركبتها بكفه ، وهو ينهض واقفاً :

– هيا بنا . . وأعتقد أن وجود الدكتور الريدى معنا سيكون ضرورة ملحة ، فأنت بحاجة لمحام كبير ليحضر التحقيق . . وسأروى له القصة باختصار ونحن فى السيارة .

وسألته زوجته : « وزكى ؟ »

– سيأتى معنا بطبيعة الحال . . هذا موقف لا يمكن أن يخفى عنه ، حتى لا يتصور أن زوجته آثمة ، وأنها لهذا تخفى إثمها عنه . . يجب أن يسمع ما سيجرى فى غرفة التحقيق كلمة بكلمة ، فإن عائدة تريد أن تضعه أمام الحقيقة كاملة ، لأنها تعتقد أن حياتها قد تتحدد معه فى ضوء سلوكه عندما يستمع إلى القصة .

وربت كتف ابنته ، وهو يقول : « – هيا بنا يا ابنتى حتى لا يتصور

الضابط الذى ينتظرنا ، أننى أحاول أن أهربك من الباب الخلفى للمسكن . مثلاً ! »

خرجوا من غرفة المكتب ، وسؤال واحد يعربد بضراوة فى رأس عائدة ، تحاول عبثاً أن تجد له إجابة مقنعة شافية : كيف وصلوا إليها بعد مرور نحو ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ التحقيق فى الجريمة ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيدها ضد مجهول ؟

على أية حال . . إنها ليست هاربة من جناية ارتكبتها . . إنها لم ترتكب جناية ما . . إنها مجرد شاهدة . . بل إنها نصف شاهدة ، فهى لم تر الجريمة وهى تُرتكب . .لقد افاقت من غيبوبة المخدّر – فى تلك الليلة السوداء – فوجدت أمامها من يقول لها إنه لص أنقذها وخلصها مما كان سيحيق بها من عار ، فشكرت له مروءته ، ثم خرجت معه دون أن تعرف عنه شيئاً ، ودون أن يعرف عنها شيئاً . .

حتى اسمه – اسم اللص – لم تعرفه . .

وحتى اسمها ، لم يعرفه اللص . .

والسؤال الصعب الذى لا تجد له إجابه مقنعة شافية ، لا يزال يدق جدار رأسها معربداً فيه بضراوة : كيف وصلوا إليها بعد نحو ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ التحقيق فى الجريمة ، لعدم العثور على الفاعل ، وقيدها ضد مجهول . .

كيف وصلوا إليها ؟ ! . . كيف ؟ ؟

١٤

عندما اكتشفت الجريمة – ليلة وقوعها – تحوّلت الغرفة التى كانت مسرحاً لها ، إلى خلية نحل . . المسكن بأكمله تحول إلى خلايا نحل دائم الطنين ، لا يهدأ . .

رجال الشرطة يؤدون واجبهم . . يسألون ويستفسرون . . ولم يكن هناك من يسألونه . أو يستفسرونه غير خليفة البواب ، وحافظ عبد الرحيم صديق المجنى عليه ، الذى جاء لزيارته بعد محادثة تليفونية تمت بينهما . . وهما اللذان أبلغا عن وقوع الحادث .

رجال المباحث يطوفون بالمنطقة بحثاً واستقصاء . . يعاينون المسكن الذى ارتكبت فيه الجريمة . . يعاينون ويمسحون كل شبر فيه ، حجراته . . أبوابه ، نوافذه ومنافذه ، حديقته وبابيها ، باب الواجهة الكبير المصنوع من الحديد المطروق المزخرف الفاخر . . والباب الخلفى الصغير ، وهو الذى خرجت عائدة منه مع اللص ، ليلة الجريمة .

رجال تحقيق الشخصية . . بعضهم يمسك بالعدسات المكبّرة ، يحاول أن يستظهر بها أية بصمة تركتها القاتلة على أية قطعة من قطع أثاث الغرفة . . بعضهم يحمل آلات التصوير بالغة الحساسية ، لالتقاط أية بصمة قد تكشف العدسات المكبرة عنها بعد أن تغطى بمسحوق الألومينيوم الذى يساعد على وضوح ظهورها على ورق التصوير . .

وانتقلت خلية النحل – بعد نحو ثلاث ساعات – من مسرح الجريمة ، إلى دار النيابة العامة ، ليبدأ التحقيق . .

إن أقرب جار لمسكن المجنى عليه ، يبعد عنه بما لا يقل عن خمسمائة خطوة . . ولم يكن من المجدى سؤال أهل هذه الجيرة ، ولكن المحقق بالرغم من ذلك ، لم يشأ أن يترك شاردة تفوته فى التحقيق . .

هكذا تعلم فى كلية الحقوق . . إنه قد يصل من ثقب الإبرة إلى أوسع الآفاق

ولكنه عندما دق باب هذه « الفيلا » – أقربها إلى مسكن المجنى عليه – فتحت له الباب طفلة فى نحو الثانية عشرة من عمرها . . واكتشف أن هذا المسكن لا يضم غير هذه الطفلة اليتيمة ، وجدّتها التى تحتضنها ، وهى سيدة فى نحو الستين . . وتقوم على خدمتها سيدة أخرى ، ربّتها ونشأتها هذه الجدة منذ طفولتها . .

ولم يكن هناك من يجوز أن يقود استجوابه لمفتاح الجريمة غير البواب ، وحافظ عبد الرحيم ، صديق المجنى عليه ، فعصرهما المحقق بأسئلته ، وحاصرهما بفنون من أساليب التحقيق وتوجيه الأسئلة . . ولكنه لم يظفر منهما – فى النهاية – بما يقنعه بأن أحداً منهما له يد فى الجريمة ، أو أنه – على الأقل – يستطيع أن يفيد التحقيق بأكثر مما أدلى به . . إنهما بريئان ، وهذه حقيقة لا شك فيها . .

ولم يكن المحقق شاباً تنقصه الخبرة والتجربة والدهاء – لحداثة تخرجه وممارسة المهنة – بل كان رجلاً حنكته التجارب ، وحقق مئات الجرائم ، وترافع أمام عشرات الهيئات القضائية أمام محاكم الجنايات ، مبتدئاً السلم من أوله حتى وصل إلى منصبه الحالى .. كان أحد وكلاء النائب العام الأوائل البارزين ، وليس أمامه أكثر من خطوة واحدة ليصبح رئيس نيابة . . .

قبل أن يختتم التحقيق فى تلك الليلة ، اتصل بالنائب العام فى بيته ، وأخبره بأنه يواجه موقفاً يرى ضرورة استشارته بشأنه ، وأنه يرجوه أن يتفضل بالحضور إلى دار النيابة . . فلم تنقض ساعة ، حتى كان المحقق مجتمعاً بالنائب العام فى مكتبه .

وبعد أن أحاطه إحاطة سريعة بالجريمة ، سأله النائب العام :

– ما المشكلة يا أستاذ فريد ؟

– سيادة النائب العام . . إن الشاهد حافظ عبد الرحيم – صديق المجنى عليه – قال فى التحقيق إن صديقه اتصل به تليفونيـــاً ، ليخبره بأن الفتاة التى تمناها طويلا ، ورصد كل تحركاتها وتنقلاتها شهوراً ليوقع بها ، قد وقعت أخيراً ، وإنها – وهو يكلمه – راقدة فى فراشه مخدَّرة .

– وبعد ؟

– ومن بين ما قاله له ، إنه لا يعرف عنها شيئاً . . حتى اسمها لا يعرفه ، لأنه لم يكن يهتم إلا بجسمها ، ولاشيء غير جسمها . .

– وبعد ؟

– ثم قال إن كل ما عرفه عنها إنها طالبة بكلية الحقوق .

وضع النائب العام كفيه على مكتبه فجأة ، وهو يقول فى ذعر :

– طالبة بكلية الحقوق ؟ ! . . هذا فظيع . . هذا مؤسف ومحزن . . وبعد ياأستاذ فريد ؟ . . تكلم !

– إن مندوبى تحقيق الشخصية استطاعوا أن يلتقطوا بصمات الأصابع الخمس ليد الفتاة اليمنى : الخنصر والبنصر والوسطى والسبابة على سطح حافة السرير . . والإبهام على جانب هذه الحافة من الداخل . . من

ناحية الوسائد ، واضح جداً أنها ارتكزت بكفها على هذه الحافة وهى تنهض من رقدتها ، بعد أن افاقت من أثر المخدر ، فانطبقت بصماتها عليها . .

– وبعد ؟ . . وبعد ؟ . . تكلم يا أستاذ فريد . . ماذا تريد أن تقول ؟

– لم نجد قرين هذه البصمات فى صحائف الحالات الجنائية .

– هذا يعنى أن صاحبة هذه البصمات . . لا سوابق لها .

– وهنا الصعوبة فى الوصول إليها . . ولهذا فإننى أرجو أن أقترح على سيادتكم الآتى . .

– تفضل يا أستاذ فريد . .تكلم !

– لن نذكر لمندوبى الصحف أننا عثرنا على أية بصمات فى مكان الجريمة .

– وما حكمة هذا ؟

– الجانية طالبة فى كلية الحقوق . . وهى بكل تأكيد ستأتى بقدميها ، بعد أن تتخرج ، لتستخرج صحيفتها الجنائية ، التى لا مفر لها من الحصول عليها ، لتقدمها للجهة التى ستعمل بها بعد التخرج . . وبطبيعة الحال ، لا مفر من مضاهاة بصمات كل من يطلب صحيفة حالته الجنائية بصحائف المطلوب القبض عليهم . . .

– معنى هذا أنك ستحفظ التحقيق لعدم التوصل إلى الفاعل ، إلى أن تتقدم الجانية بطلب استخراج صحيفتها الجنائية ؟

– سيادة النائب العام . . . نحن لا نستطيع أن نبحث بين طالبات كليتى حقوق القاهرة وعين شمس – وعددهن نحو أربعة آلاف طالبة –

فنلتقط بصماتهن جميعاً لمضاهاتها بالبصمات الخمس التى التقطناها من مكان الجريمة . . نحن نواجه كارثة خلقية يا سيادة النائب العام ، نواجه فضيحة تتعلق ببناتنا وتمسهن . . فضيحة لا أقول يحسن بنا بل يجب علينا أن نتكتمها فى أضيق الحدود ، ونحن بهذا نحاول أن نتفادى هزة عنيفة فى البلد ، يمكن أن يكون لها أسوأ النتائج . .

هز النائب العام رأسه فى أسى ، وهو يقول

– بكل أسف . . هذا كله صحيح .

– أكثر من هذا . .

– هات ما عندك . .

– إذا عرف وذاع أننا التقطنا بصمات القاتلة فى مكان الجريمة ، فإن المتهمة ستحجم قطعا عن استخراج صحيفتها الجنائية ، بعد أن تنتهى من دراستها ، ومعنى هذا أننا لن نصل إليها . .

– وتضحى بالوظيفة التى تعلمت من أجل الحصول عليها ؟

ضحك النائب المحقق وهو يقول :

– سيادة النائب العام . . إنها فى « خبطة » واحدة سرقت ألفى جنيه نقداً ، إلى جانب جواهر ونفائس لا يقل ثمنها عن ألفين آخرين . . فهل تهتم مثلها بوظيفة تتقاضى عنها مرتباً شهرياً ، لا يزيد على واحد وعشرين جنيها بعد خصم الضرائب والتأمينات وغيرها وغيرها ؟

– معقول .

– هل تضحى بحريتها إذا سجنت ، أو بحياتها إذا حكم بإعدامها ، لتنال الوظيفة التى لن تنالها بحال ؟ . . إنها دارسة التدوين ، وتعرف بداهة

أن البصمات التى تلتقط لمجهولى الشخصية فى مثل هذه الجرائم ، تحفظ فى إدارة خاصة ، إلى أن يضطر أصحابها لاستخراج صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بهم فيكتشف أمرهم . ويقبض عليهم فوراً .

– استمر يا أستاذ فريد . .

– إذا عرف وذاع أيضاً – عن طريق الصحف أو غير الصحف – أن المتهمة التى تبحث النيابة عنها من طالبات كلية الحقوق ، فإننا بهذا نحوِّل كل بيت ، كل أسرة بين أفرادها طالبة فى هذه الكلية ، إلى قنبلة زمنية لا مفر من انفجارها فى اللحظة الموقوتة لانفجارها ، لتدمر العلاقة بين البنت وأهلها . . سينظرون لها جميعاً على أنها بطلة الحادث الذى تناولت الصحف تغطيته بإسهاب ملحوظ ، نظراً لظروفه الشاذة ، ووسيلة المجنى عليه لاصطياد السيدات والفتيات . .

– هذا صحيح .

– كذلك . . أية فتاة من طالبات كليتى الحقوق – القاهرة وعين شمس – ستقرأ فى عينى أبويها وإخوتها وأخواتها ، وبقية أفراد أسرتها ، بل وجيرانها . . ستقرأ الاتهام فى عيونهم جميعاً ، ولو عن طريق الوهم إحساساً منها بأن الطالبة المتهمة زميلة لها . . أى أنه من الممكن أن تكون هى ، هذه الطالبة المتهمة . . ولم لا ؟ . . ومعنى هذا أننا سندمر العلاقة الأسرية الإنسانية بين أولئك الطالبات وذويهن .

اعتدل النائب العام فى جلسته ، وهو يقول لنائبه الأول :

– كل هذا جائز ومحتمل ، ومن المستحسن أن نتفاداه حقيقة . . وبعد ، فإنها حتماً ستقع يوماً ما ، وستجئ إلينا برجليها كتقديرك . .

– أتصرف إذن فى ضوء ما شرحت لسيادتكم ؟

– تصرف يا أستاذ فريد !

– بقيت نقطة أخيرة . .

– هاتها !

– أنا أميل للاعتقاد – مع شيء من التحفظ – بأن للفتاة شريكاً . . أو هى شريكة لثالث ، كان معها وقت تنفيذ الجريمة . .

– ولكن شهادة البواب تؤكد أن المجنى عليه دخل مسكنه ، يحملها على ذراعيه مغمى عليها ، وأنه – أى البواب – لم ينتقل من مكانه أمام الباب الخارجى للحديقة ، إلا عندما جاء صديق مخدومه واكتشفا الجريمة معا . . فمتى دخل هذا الثالث ؟ . . أعنى الشريك ، الذى تميل للاعتقاد بوجوده اثناء تنفيذ الجريمة ؟ . . من أين دخل المسكن ؟ . . ومتى ؟

– هذا ما يحيرنا جميعاً .

– « الڤيلا » . . لها باب خلفى ؟

– لها باب خلفى .

– هل تمت معاينته ؟

– بكل تأكيد . . ولم نجد على حافته أو مقبضه أية بصمة ، ولا أشك أبداً فى أن الفتاة وشريكها – إن صح اعتقادى بأن لها شريكاً – قد خرجت ، أو خرجا معا من هذا الباب الخلفى .

– هل وجدتم بصمات أخرى غير بصماتها ؟

– لم يكن هناك أية بصمات أخرى .

– أبدا ؟

– أبدا .

– ما الذى جعلك تعتقد إذن أنها لم تكن وحدها ؟

– آثار مقاومة فى الغرفة ، والفتاة مهما كانت قوية البنية ، فهى لا يمكن بحال أن تقاوم رجلا طويلا ، عريضاً ، فى وزن وحجم المجنى عليه . . إلى أن تقتله بخنجر .

ومرت لحظة صمت ، كان النائب العام خلالها يفكر . .

لعله كان يستعرض مئات الجرائم المشابهة لهذه الجريمة ، مما مر به خلال سنوات عمله الطويلة ، ليستخلص من هذا التشابه ما يمكن له أن يطبقه عليها . . ليصل إلى ثقب الإبرة الذى قد يفتح له أوسع الآفاق . .

وما لبث أن رفع عينيه إلى وكيله المحقق الجالس أمامه ، وقال له :

– أستاذ فريد . . أنا لا أستبعد ما تقول . . فقد علمتنى المهنة ألا أفاجأ أثناء أى تحقيق ، بأى شىء . . مهما كان هذا الشىء مخالفاً لتوقعاتى ، أو لرأى كوّنته وانتهيت إليه . .

– نحن متفقان إذن ، يا سيادة النائب العام .

– تصرف فى ضوء ما تداولناه الآن ، وإذا كان تقديرك سليماً – وهو سليم فيما أرى – فـاحفظ التحقيق لعدم التوصل إلى الفاعل . . وستجد رئيس وحدة فحص البصمات يدق باب مكتبك يوماً ، ليضع أمامك بصمات إحدى خريجات كلية الحقوق ، مطابقة للبصمات التى التقطها من غرفة الجريمة ، والمحفوظة لديه ضمن بصمات المطلوب القبض عليهم . ومن أقوالها تستخلص الحقيقة كاملة .

* * *

وتصرف النائب المحقق فى الجريمة ، فى ضوء ما انتهى إليه مع رئيسه بعدمناقشتهماالطويلة . . فحفظ التحقيق لعدم إمكان الوصول إلى الفاعل . ونشرت الصحف خبر هذا الحفظ . . وكان تركيز النائب — وهو يتحدث إلى الصحفيين — منصباً على أن الجانية لم تترك أى أثر يمكن أن يقود إليها بعد أن عجز مندوبو تحقيق الشخصية عن التقاط أية بصمة لها . .

كان التركيز على هذه النقطة مكثفاً ، مع تصريح من المحقق . للصحفيين بأن هذا ما يحيرهم ومادعاهم لحفظ التحقيق ، وقيد الجناية ضد مجهول . .

من هنا اطمأنت عائدة إلى أنها أبعد من أن يمكن الوصول إليها . .

وهى — بعد — ليست جانية . . ويوم ذهبت مع زملائها وزميلاتها . لتستخرج صحيفة حالتها الجنائية ، لم يخطر ببالها قط أنها استدرجت ، بكل هدوء وصبر ودهاء ، إلى المصيدة ! . . وإذا بها — وهى تحتفل بعيد ميلادها الرابع والعشرين — تفاجأ بمن يدق بابها ليستدعيها إلى دار النيابة العامة ، للتحقيق معها — وأدبا أو تأدبا — لسماع أقوالها ، بعد نحو ستة عشر شهراً من حفظ التحقيق وقيد الجناية ضد مجهول !

١٥

فتح المحضر ، وبدئ التحقيق . .

ذكرت عائدة اسمها ، وسنها ، وديانتها ، ووظيفتها ، وعنوان إقامتها ، واسم زوجها — وأشارت نحوه جالسا بالقرب منها — يقظاً مشدود الأعصاب ، متنبه الحواس . . ثم ذكرت اسم والدها ، وأشارت نحوه جالساً عن

يمينها ، واستأذنت لبقائهما معها إلى أن يتم التحقيق . . ولم يكن هناك ما يمنع ذلك ، فبقيا .

أما الدكتور الريدى ، فلم يكد يقدم نفسه للمحقق ، حاضراً التحقيق مع موكلته الأستاذة عايدة فهمى ، حتى قاطعه النائب المحقق :

– أستغفر الله يا دكتور . . لقد كنت من تلامذتك فى كلية الحقوق .

وبدئ التحقيق بسؤالها – سؤالاً مباشراً – عما إذا كانت تعرف شخصاً اسمه « عبد الحميد لطفى » . وهنا تدخل الدكتور الريدى مستأذناً فى كلمة .

– تفضل يا دكتور !

– إذا كانت النيابة تريد أن تسأل موكلتى ، الأستاذة عايدة فهمى ، عن مقتل المرحوم السيد عبد الحميد لطفى ، فإنها تستطيع أن توفر عليكم كثيراً من الأسئلة ، وأن تختصر ما قد يستغرقه التحقيق من أيام إلى ساعات . .

أجاب المحقق : « الواقع أن النيابة توجّه لها تهمة قتل المرحوم عبد الحميد لطفى . فقد عثرنا ليلة الجريمة على بصمات مجهولة على حافة السرير ، فى غرفة المجنى عليه . . وظلّت هذه البصمات محفوظة لدينا ، دون أن نعرف صاحبتها . . كان واضحاً من صغر حجمها أعنى مساحتها ، ودقتها – أنها لفتاة . . يؤيد هذا شهادة البواب ، الذى شاهد سيده يحملها ويدخل بها مسكنه ، ومحادثة تليفونية بين المجنى عليه وأحد أصدقائه . . وعندما ذهبت السيدة عائدة لتستخرج صحيفة الحالة الجنائية الخاصة بها ، بعد شهور من حفظ التحقيق ، فوجئ رئيس وحدة الفحص ،

بمطابقة بصماتها للبصمات التى التُقطت من غرفة الجريمة . . فوق حافة السرير الخاص بالمجنى عليه .

فجأة ، أحس الجميع بحركة المقعد الذى يجلس عليه زكى – زوج عائدة – وهو يقول ، فى صوت من فوجئ بلطمة غادرة :

– ما هذا الذى أسمعه ! ! . . زوجتى متَّهَمة بقتل وسرقة مال رجل كانت فى فراشه ؟ !

التفت الدكتور الويدى نحوه ، وهو يقول فى هدوء :

– أستاذ زكى . . أرجو منك أن تستمع ، وأن تملك أعصابك ، حتى لا تتسرع فتظلم زوجتك !

ثم اتجه للمحقق بالحديث :

– سيادة النائب . . . الأستاذة عائدة تستطيع أن توفّر على النيابة الكثير ، كما قلت لسيادتك ، إذا استمعتم إلى القصة كاملة .

– والنيابة ترحّب يا دكتور ريدى ، فليس لنا من هدف إلا الوصول للحقيقة ، والقبض على من ارتكب الجريمة . . تفضلى يا أستاذة عائدة !

ثم التفت إلى كاتب التحقيق ، وقال له : « اكتب يا سيد مسعود ! »

وروت عائدة القصة كاملة ، فى نحو نصف ساعة . . روتها من لحظة وقوفها فى شارع الجامعة بالجيزة ، تنتظر سيارة تعود بها إلى بيت أسرتها بعد أن استعارت كراسة المحاضرات من صديقتها وزميلتها « ناهد مزاق » . . . إلى أن خرجت مع اللص من باب المطهى المخصّص للخدمة ، ومنه إلى الجزء الخلفى من الحديقة ، ومن بابها الصغير إلى الطريق . .

وأنهت عائدة قصتها بقولها : « سيادة النائب . . أنا ضحية ، أنا مجنى

علىّ ولست جانية ، وإن كنت قد أخفيت القصة عن أهلى ، فلم يكن هذا الإخفاء إلاّ عن حرج ، وخجل ، بل وإحساس بالخزى عميق . . فلا شك أن عبد الحميد لطفى – وقد جرّدنى من ثوبى وأنا تحت تأثير المخدر – قد بدأ عبثه بجسمى . وإن لم يصل إلى غايته المخزية ، لأن اللص تصدّى له فى اللحظة الأخيرة ، فمنعه فصان عرضى ، وأنقذنى من عار الأبد . . سألها المحقق : « هل قتله اللص ؟ »

– لم أر شيئاً ، لأنى كنت تحت تأثير المخدّر .

– ألم تنتبهى لمعركة تدور فى نفس الغرفة ؟

– كنت مخدّرة ، فكيف أتنبه ؟

– ماذا قال لك اللص ، بعد أن أفقت من المخدر ؟

– قال : أنا لص ، ولكنى أشرف منه ألف مرة !

– هل رأيته يسرق شيئاً ؟

– منديل يد للمجنى عليه ، أظنه الذى كان مبللا بالمخدر . . كان ملقى قريباً من السرير

– هل كل ما سرقه اللص منديل يد ؟

– يبدو لى أنه كان قد فرغ من مهمته ، قبل أن أفيق من أثر المخدّر .

– ألم يقل لك شيئاً آخر ؟

– قال وهو يتعجلنى ارتداء ثوبى : « ادخلى فى ثوبك بسرعة ، إذ يجب أن نخرج من هنا فى دقيقة ، لأن صديقاً من أصدقائه سيحضر ليراك وليسلم عليك ، كما سمعته يقول » . . وفهمت أن الحديث كان عن طريق التليفون .

واجه المحقق عائدة ، وسألها : « أستاذة عائدة . . لو أنك تحققين هذه الجناية ، وأنا الآن أخاطب معيدة بكلية الحقوق . .

– تفضل !

– هل تصدقين المتهم ، إذا قص عليك القصة التى قصصتها علىّ الآن ؟

واجهته عائدة بشجاعة ، وغرست نظراتها فى عينيه ، وهى تقول فى صوت هادئ رزين ، فيه من الاعتداد بقدر ما فيه من أدب ، ومن إحساس صاحبته بأنها لم تعتد قط أن يشك إنسان فى صدق ما تقول .

– سيادة النائب . . أنا صادقة ، وقد قلت الحقيقة . . وخطئى الوحيد الكبير – بعد قبولى الركوب مع غريب لا أعرفه – أننى لم أخبر والدى ليلتها بما وقع لى ليصحبنى إلى هنا للإبلاغ عن الحادث فوراً . . ولو فعلت ، لانتهى كل شىء فى ساعتين . .

وهنا استأذن الدكتور الريدى ، فى إبداء ملاحظة ، وقال :

– سيادة النائب . . بعد أن أفاضت الصحف فى تغطية هذا الحادث ، حين وقوعه . طلبت ممن تابع أنباء الجريمة من تلاميذى وشاقه التحقيق – إذا كان قد تابعه يوماً بيوم – أن يكتب تحليلاً . مستنتجاً دوافعها ، وظروفها ، والتكييف القانونى لها ، وكيف يتصرف فيها إذا كان فى مقعد النائب المحقق ، وبم يحكم على القاتلة ، إذا كان مكانه خلف منصة القضاء . . أو تدرى يا سيادةِ النائب ماذا كتبت الأستاذة عايدة – فى هذا الموضوع . . وقد كانت ضمن تلامذتى ؟

– ماذا كتبت يا دكتور ؟

– كتبت القصة التى قصتها فى التحقيق الآن . . قالت إنها تقطع بوجود « ثالث » وقت ارتكاب الجريمة ، وإن هذا الثالث هو الذى ارتكبها . وأعترف أننى أعجبت إعجاباً شديداً بمذكرتها ، وبوصولها إلى حصر التهمة فى شخص آخر ، غير الفتاة التى دخل المجنى عليه مسكنه حاملاً إياها على ذراعيه مخدّرة . . ولم أكن أدرى أنها كتبت التجربة التى عاشتها ، والتى تتضمن الحقيقة ، عندما قلت عنها – أقصد عن عائدة – إنها كما لو كانت فى الغرفة التى ارتكبت فيها الجريمة وقت ارتكابها . . وإنى لعلى استعداد لأن استأذنكم الآن لنصف ساعة ، أتوجه خلالها إلى مكتبى ، وأعود بالمذكرة مكتوبة بخط الأستاذة عائدة ومؤرخة بتاريخ معاصر لوقوع الجريمة . .

ونظر الدكتور الريدى إلى عائدة ، وهو يقول : « إنما أرمى بهذا لأن أؤكد أن موكلتى صادقة فى كل ما روت . . جملة وتفصيلاً » .

وقال له المحقق : « لا مانع عندى من أن أطلع على هذه المذكرة يا دكتور » .

قام الدكتور الريدى عن مقعده مستأذناً من الحاضرين ، واتجه نحو باب الغرفة ، وهو يقول : « لن تطول غيبتى أكثر من نصف ساعة ، فإن مكتبى فى شارع قصر النيل » .

وقبل أن يخرج الدكتور الريدى من الغرفة ، قام زكى – زوج عائدة – عن مقعده ، وهو يخاطب أستاذه السابق : « دكتور ريدى . . خذنى معك من فضلك ! »

والتفت إلى المحقق ، وإلى زوجته وإلى أبيها ، وهو يقول فى صوت

خيل لعائدة أنه ليس صوت زوجها : « عن إذنكم ! »
واندفع خارجاً – مع الدكتور – كالقذيفة الطائشة .

. . . .

عائدة توقعت أن الدكتور الريدى سيعود وحده . . وهمست لوالدها بهذا . . وحدث ما توقعته ، فقد عاد الدكتور الريدى بعد خمس وعشرين دقيقة ، ولم يكن زكى بصحبته . .

من ملامح الدكتور الريدى أدركت عائدة كل ما حدث . . كذلك والدها ، أدرك ما أدركته ابنته . .

كذلك أدرك الدكتور الريدى ، أن عائدة ووالدها قد أدركا كل شيء . . بلا كلمة واحدة ، ودون أن يفتح فمه بحرف واحد . .

إن زكى لا يستطيع أن يعاشر امرأته ، بعد كل ما سمعه من هول . .
كان هذا موجز النبأ الذى قرأته عائدة كما قرأه والدها ، على وجه الدكتور الريدى . أما التفصيلات ، فلم يكن الوقت مناسباً ليقصها الدكتور الريدى على تلميذته الغالية ووالدها .

سأله المحقق – بمجرد دخوله غرفة التحقيق – إن كان قد أحضر المذكرة ، التى كتبتها عائدة عن الجريمة ، فقدمها له الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– ها هى ذى يا سيادة النائب ، بخط عائدة ، وبتوقيعها ، ومؤرخة بتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر من العام قبل الماضى . . والجريمة وقعت فى الثالث عشر من الشهر ذاته . . وعندما تقرأها سيادتك ، أعتقد أنك ستتفق معى فى الرأى . . فتاة وجدت نفسها فى مأزق قد يشير إليها –

اتهاماً – بجريمتين خطيرتين ، القتل والسرقة ، وهي بريئة منهما . . وعندما أتيحت لها الفرصة لتحليل هذه الجريمة ، كدارسة من دارسي القانون أو دارساته ، وجدت قلمها يجري بالدفاع عن نفسها ، دون أن تدري ، مدفوعة من عقلها الباطن بغريزة حب البقاء ، مسجلة أحداث الجريمة دقيقة بدقيقة ، وبصدق لا يمكن أن يشوبه أي شك . . تفضل سيادتك بقراءة المذكرة ، فقد تضيء لك الطريق إلى الحقيقة أكثر !

قرأ المحقق المذكرة في دقائق ، وضمها للتحقيق ، مسجلا هذا في المحضر ، ثم وجه لعائدة سؤالا محدداً :

– أستاذة عائدة . . إذا رأيت هذا اللص ، بين أربعة أو خمسة أشخاص ، فهل تستطيعين التعرف عليه وإخراجه من بينهم ؟

أجابت بسرعة ، دون تفكير : « طبعاً » .

– وإذا رأيت صورته ، بين مجموعة من الصور لآخرين ، فهل تستطيعين أن تشيري إليه قائلة : هذا هو ؟

بالسرعة ذاتها أجابت ، وبدون تفكير : « طبعاً أستطيع ! »

ضغط المحقق زر الجرس إلى جانبه ، فدخل الحارس المنوب ، وأدَّى التحية العسكرية ، فأمره بأن يطلب من المقدم فاروق الحسيني مجموعة صور اللصوص الخطرين المحفوظة لديه . .

أدى الحارس التحية ، وبارح الغرفة ، لينفذ الأمر الصادر إليه . . ولم تمض دقائق حتى دقّ المقدم فاروق الحسيني باب الغرفة ، ودخل فقدم للمحقق مجموعة من الصور الشمسية ، وهو يقول :

– هذه مجموعة صور اللصوص الخطرين التي لدينا يا سيادة النائب . .

خمس عشرة صورة .

تناولها النائب منه ، وهو يقول : « شكراً سيادة المقدم » .

وأملى على كاتب التحقيق أنه عرض على المتهمة صور اللصوص الخطرين ، المحفوظة لدى المباحث العامة ، فأجابت . .

وقدم الصور إلى عائدة ، وهو يقول :

– دققى النظر جيدًا فى هذه الصور يا أستاذة عائدة ، وافرزى لنا من بينها صورة هذا اللص . .إن وجدتها .

تناولت عائدة مجموعة الصور بيد مرتعشة ، وراحت تستعرضها واحدة بعد واحدة ، إلى أن ردتها للمحقق ، وهى تقول :

– ليست بينها .

– متأكدة ؟

– متاكدة .

– هل تعيدين النظر مرة ثانية ؟

– إذا أردت سيادتك .

– أرجوك . . تفضلى ! . . أعيدى النظر مرة ثانية وأخيرة !

استعرضت عائدة الصور مرة ثانية – وأخيرة – ثم – ردتها إلى المحقق ، وهى تكرر ذات العبارة : « ليست بينها ! »

وأملى المحقق على كاتب التحقيق نتيجة هذا العرض ، وإنها كانت سلباً ، ثم التفت إلى عائدة وسألها :

– قلت إنك تستطيعين التعرف على هذا اللص ، إذا وقف أمامك بين أربعة أو خمسة أشخاص . .

– نعم قلت هذا .

– لن يتيَسر لنا الليلة أن نجمع لك الخطرين المشهورين ، لعرضهم عليك عرضاً قانونيًّا . . ولهذا قررنا أن تتم عملية العرض هذه ، فى الساعة الواحدة بعد ظهر غد .

ثم التفت إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– أستاذنا الدكتور الريدى . . النيابة مضطرة – مع الأسف الشديد – لإلقاء القبض على الأستاذة عائدة فهمى ، لحين استيفاء التحقيق .

. . . .

– قبض ؟ !

الكلمة خرجت – فى لحظة واحدة – من بين شفاه الدكتور الريدى وعائدة ووالدها الدكتور محمود فهمى . .

– لا يمكن .

– مستحيل .

وتمالكت عائدة أعصابها ، وهى تحس إعصاراً يعصف بروحها ونفسها وبكل كيانها ، وقالت فى صوت حاولت جهدها – وبقدر ما تستطيع – أن يبدو ثابت النبرات :

– سيادة النائب ، أنا بريئة . . أنا كما قلت لسيادتك من قبل ، مجنى علىّ ولست جانية . . ثق أننى لم أكن أتردد لحظة واحدة فى قتل عبد الحميد لطفى ، إذا كنت أفقت واكتشفت أنه اعتدى علىّ ، ولم أكن لأتردد لحظة فى الحضور لك فى نفس الليلة ، لأبلغك بأنني قتلت رجلا

فعـل بى ما كان يريد أن يفعله بى هذا الرجل لولا أن أنقذنى منه هذا اللص المجهول ، فى اللحظة الأخيرة المناسبة . . ففيمَ القبض على ؟ !

وقبل أن يجيبها المحقق ، استأذنه الدكتور الريدى فى كلمة :

– سيادة النائب . . الأستاذة عايدة فهمى شخصية معروفة ، فهى معيدة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، ولها تلامذتها وتلميذاتها ، وهى بريئة قطعاً ، ووالدها الدكتور – صيدلى – محمود فهمى شخصية معروفة كذلك . . ولست أريد أن أتحدث عما يحدثه القبض عليها فى الرأى العام وفى المحيط الجامعى – بتهمتى القتل والسرقة ، فى جريمة خلقية ، من آثار بالغة السوء . . فهذه نتائج لا أشك فى أنها لا تخفى على فطنتكم . . ومع ذلك ، فوالدها وأنا نوقع الآن تعهداً قانونياً فى محضر التحقيق ، بإحضارها فى الموعد الذى حددته سيادتك لإجراء عملية العرض القانونية . .

وابتلع الدكتور الريدى غصته ، وهو يتحدث عن تلميذته الغالية ، ليضيف !

– وبعد ، فالأستاذة عائدة يا سيادة النائب ، لا تخرج أولاً وأخيراً عن كونها أحد أفراد أسرتنا القضائية ، ولو اقتضى الإفراج عنها سداد كفالة مالية – إذا رأيتم أن الضمان الشخصى لا يكفى – فنحن نسدد الكفالة فوراً .

أجابه النائب مقتنعاً : « لا بأس يا دكتور » .

وأملى كاتب التحقيق العبارة التقليدية ، التى يختتم بها أى تحقيق ، مع قرار الإفراج عن المتهمة الأستاذة عايدة فهمى ، بضمانة والدها الدكتور محمود فهمى ، على أن تحضر فى تمام الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم

التالى . لإجراء عملية العرض القانونى على المتهمة . .

. . . .

وعلى باب غرفة التحقيق – وعائدة ووالدها ومحاميها فى طريقهم إلى الخروج – كان حشد من الصحفيين فى انتظارها . .

لمعت أضواء آلات التصوير الخاطفة فى تتابع سريع . . وحاول والد عائدة أن يمنعهم ، كما حاول الدكتور الريدى أن يردهم . . ولكن عائدة أشارت لوالدها ولأستاذها فى أدب عال ، وهى تقول فى صوت هادئ يشع كبرياء واعتدادا بالنفس :

– دعهم يا أبى . . دعهم يا دكتور ، فلست جانية ، ولا أهاب شيئاً ، ولم يعد لدى ما أخفيه !

وانهالت عليها أضواء آلات التصوير ، فبدت كمن تستحم فى الضوء . . كما انهالت الأسئلة ، وهى تجيب فى هدوء ، وفى ثبات ، وفى كبرياء ، وفى ثقة بالنفس بلا حدود . . حتى إذا سألتهم إن كانوا قد فرغوا من مهمتهم ، لتستطيع الانصراف مع والدها وأستاذها ، سألها صحفى ، إذا كان لها كلمة تريد أن تقولها أو توجهها للرأى العام ، فأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها لتقول :

– إذا كان لدى ما أقوله ، فهى كلمة قصيرة . . والكلمة ليست لى . . ولكنها للص ، ارتكب جريمة قتل دفاعاً عن عرض فتاة لا يعرفها . .

« واللص كان يستطيع أن ينجو بنفسه بكل سهولة ، فيتسلل فى هدوء خارجاً من خلف الستار التى كان يقف وراءها ، دون أن يشعر به السيد المتعلم الثرى صاحب المسكن ، لأنه سيكون – فى تلك الأثناء – مشغولاً

بالفتك بهذه الفتاة عن كل ما حوله . . واللص كان يستطيع – بعد أن ارتكب جريمة القتل – أن يستغل ضعف الفتاة ، وفظاعة موقفها بالغ الحرج والدقة والحساسية والسوء ، كفار فى مصيده . . ولكنه عفّ عن هذا المنكر ، وترفّع عن أن يسفح دم عذراء لاتملك حيال بطشه أية مقاومة ! . .

« واللص لم يتخلّ عن الفتاة ، ولم يتركها وحدها لليل وظلمته ، ووحشته ، ولكنه خرج من مسكن السيد ممسكاً بيدها ، ولم يتركها إلا بعد أن اطمأن إلى أنها استطاعت أن تستوقف إحدى السيارات ، لتصل إلى منزلها بسلام . .

« اللص قال لى ، وهذا الكلام أنوب عنه فى توجيهه لكل فتاة أو سيدة :

« – لا تركبى مع أحد بعد اليوم ، ولو قرأت فى بطاقته الشخصية أمام خانة المهنة – أنه نبى ، فلسنا فى عصر الأنبياء . . والأنبياء لم يكونوا يركبون « البيجو » أو « المرسيدس » . . كلهم ذئاب ، ولا أُهين الكلاب فأشبهها بهؤلاء الناعمين ، الذين يفتحون أبواب سياراتهم الفاخرة لكل جميلة ، واى جميلة ، مرتدين قميص المروءة ، عارضين حملها إلى حيث تريد ، بينما هم يبيّتون لها ما كان سيحل بى فى تلك الليلة . . لا أُشبه هؤلاء بالكلاب ، فالكلاب أنظف وأشرف وأعفّ منهم ألف مرة ، فلا تركبى مع أُحدهم مهما كانت الحاجة ملحة للانتقال من مكان إلى مكان . . لا تركبى ! . . لا تركبى ! . . لا تركبى ! ! » .

وتابطت عائدة ذراع والدها من جهة ، وذراع استاذها من الجهة الثانية ، وساروا ثلاثتهم فى الممر الطويل ، وعدسات التصوير تلاحقهم بأضوائها السريعة ، إلى أن انعطفوا نحو سلم المبنى . . ومنه إلى الطريق حيث

كانت سيارة الدكتور الريدى فى انتظارهم ، فعادت بهم إلى بيت أسرة عائدة

كان الحفل قد انتهى ، وانصرف المدعوون ، ما عدا قرينة الدكتور الريدى ، التى بقيت مع فوقية هانم – والدة عائدة – إلى أن يعود زوجها ، الذى أوصاها بهذا قبل أن ينسحب من الحفل مع عائدة ووالدها والمقدم فاروق الحسينى .

* * *

عائدة لم تنم فى هذه الليلة . . لم تنم حقيقة ، إذ لم يغمض لها جفن حتى بارحت غرفة نومها – فى نحو التاسعة صباحاً – فقد كانت أسيرة فكرة واحدة . .

إن صور اللصوص ، التى عرضها المحقق عليها ليلة أمس ، طالباً منها أن تتعرّف من بينها على صورة اللص القاتل . . هذه المجموعة ، لم تكن تضم صورة هذا اللص ، ولهذا ردتها للمحقق وهى تخبره بأن الصورة التى يبحث عن صاحبها ليست بينها . . ردتها له مرتين . .

وهى على موعد – فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم – لإجراء عملية عرض حية أمامها . . سيؤتى بعدد من اللصوص المعروفين الخطرين ، ليقفوا أمامها . . لتتعرف على اللص القاتل . . لتخرجه من بينهم إذا كان بينهم . .

فماذا إذا كان بينهم حقيقة ؟ . . ماذا إذا كان واحداً منهم ؟ . . ماذا لو فوجئت به واقفاً بينهم ؟

هل تشير عليه بأصبعها ، لتقول : هذا هو اللص القاتل ؟

أيمكن هذا ؟ . . أتطاوعها نفسها لترفع يدها ، فتشير إلى رجل أنقذ عرضها ، وحفظه لها من هوان يظل عالقاً بها إلى الأبد ؟ . . أهكذا يكون جزاء من ارتكب جريمة قتل بسببها ، ومن أجلها ، ليصنع جميلاً لا يمكن أن تنساه أبداً ؟ . . هل تقابل جميلة بمثل هذا الجحود ؟

هى تعرف أن مشكلة اتهامها بالقتل والسرقة قد أنتهت تقريباً ، فهى تستطيع أن تدرك أن النائب المحقق قد اقتنع بصدق قصتها ، وبالتالى ببراءتها من التهمتين ، وأن الاهتمام كله – الآن – مكثف ومركز على البحث عن القاتل الحقيقى وللوصول إليه ، وإلا ما أصدر قراره بالإفراج عنها بلا كفالة ، مكتفياً بالضمان الشخصى . . وفى هذا ما يكفى للدلالة على اقتناعه ببراءتها !

كانت لها أمنية واحدة ، وهى تعانى أرقاً مريراً طوال هذه الليلة العصيبة . . ألا يكون اللص الذى أنقذها ، بين الذين سيقفون أمامها لتتعرف عليه ، ولتخرجه من بينهم . .

وظلت هكذا فى صراعها المرير ، مفتحة العينين ، إلى أن غلب نورُ الفجر – متلصصاً من خصاص نوافذ غرفها – نورَ المصباح الكهربى الصغير القريب من فراشها ، فقامت وهى تزفر زهقها ومللها وقلقها وتوترها ، لتجلس فى شرفتها تستقبل نسمات الصباح الأولى ، لعلها تغسل هموم نفسها . .

ثم عادت إلى غرفتها ، عندما بدأت عيناها تواجهان قرص الشمس فى إبهاره غير المحتمل ، فرقدت فى فراشها الخالى . .

غريبة ! ! . . غريبة جداً ! ! . .

فى هذه اللحظة فقط ، بعد أن انجلى الليل وظهرت تباشير الصباح ،

تذكَّرت أو اكتشفت أن زوجها لم يعد . . وأنها أمضت الليلة وحدها ، لأول مرة منذ زواجها . .

إن زوجها لم يعد . . لم يعد منذ بارح غرفة التحقيق مع أستاذها ومحاميها الدكتور الريدى . .

وابتسمت فى مرارة . . فى مرارة ، ولكن فى قوة ، وفى كبرياء . .

* * *

وبارحت غرفتها فى نحو التاسعة ، فقبّلت والدها ووالدتها ، وانضمت إليهما حول مائدة الفطور . . وصبت اللبن الساخن فى قدحها ، وحاولت أن تبدو كما تعوداها دائماً . .

قال لها والدها :

– اتفقت مع الدكتور الريدى يا عائدة ، على أن نمر بمكتبه فى منتصف الواحدة ، لنصحبه إلى دار النيابة . . لنكون هناك قبل الموعد المحدد بدقائق .

أجابته فى هدوء :

– حسن جداً يا أبى . . حضرتك ستكون تحت ، فى الصيدلية ، طبعا ؟

– طبعاً .

وابتسم وهو يضيف ، محاولاً أن يسرِّى عنها :

– سأكون فى شرف أستقبالك ، ما بين الثانية عشرة والربع والثانية عشرة والنصف ، لنركب فوراً ، ونذهب للدكتور الريدى ، الذى سيكون فى أنتظارنا أمام باب العمارة ، حتى لا نضيع وقتاً . .

وقام الأب عن مقعده – أمام مائدة الفطور – وهو يستأذن زوجه وابنته للانصراف إلى عمله ، إلى صيدليته أسفل البيت .

وحمل أحد الخدم إلى عائدة صحف الصباح ، تحمل عناوينها الضخمة :

مباحث القاهرة تصل إلى قاتلة الثرى عبد الحميد لطفى ، بعد ستة عشر شهراً من تاريخ حفظ القضية .

بطلة جريمة مدينة المهندسين من أسرة كبيرة ، ومعيدة بكلية الحقوق ، وعلى قدر كبير من الثقافة والجمال .

المجنى عليه كان يخدّر من تركب معه ، ثم يحملها إلى بيته ، ليعتدى عليها وهى فاقدة الوعى .

المتَّهَمَة تنكر تهمتى القتل والسرقة ، وتنسبهما إلى لص مجهول ، كان فى مسرح الجريمة .

الإفراج عن المتَّهَمَة بضمان والدها .

الدكتور نور الدين الريدى محامى المتهمة ، كان أستاذها – طالبة – فى كلية الحقوق .

عملية عرض قانونية تتم اليوم ، حيث تستعرض المتهمة أخطر عتاة الجريمة المعروفين ، لتتعرف من بينهم على اللص الذى تنسب له ارتكاب الجريمة .

وعشرات الصور تبدو فيها عائدة ، وحدها ، أو بين والدها ومحاميها . . ثم تحقيقات صحفية تشغل مساحات كبيرة من صحف الصباح اليومية الثلاث ، خلعت بعضها على الحادث وصف « جريمة الموسم » .

* * *

مع مثات الألوف الذين يقرأون ، كان اللص يقرأ ، فهو يستطيع أن يقرأ . .

– نهار أسود . . الحق يا توحة !

وأسرعت زوجته إليه ، فقال : « أنت فاكرة عملية مدينة المهندسين ؟ »

– مالها ؟

– وصلوا إلى البنيَّة المسكينة ، واتهموها بالقتل والسرقة .

– يا مصيبتى ! . . ولكنها مظلومة يا عبد الغفار .

– المهم الآن . . يجب أن أختفى بسرعة ، لأنى أتوقع حضورهم فى أية لحظة ، للقبض علىّ ، لأقف أمامها مع غيرى فى عملية العرض التى ستجرى اليوم . .

– وهى ستعرفك من نظرة . .

– مصيبة ! !

– أسرع يا عبد الغفار . . بسرعة « يا خويا » . . ربنا يسلم لك طريقك .

– عندك فلوس ؟

– عندى يا عبد الغفار . . معى كفاية .

– خذى هذا المبلغ أيضاً . . من يدرى ، فقد أضطر للغياب عنك أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ، إلى أن تنام الحكاية قليلا . . أراك بخير يا توحة .

– مع السلامة يا عبد الغفار .

– تعالى يا رشا !

وحمل طفلته الوحيدة ، وضمها إلى قلبه ، ثم قبلها وأعادها إلى

أمها ، وانطلق إلى باب المسكن . . وما إن فتحه ليخرج ، حتى فوجئ بأحد ضباط الشرطة ، ويده على الباب يكاد يدقه . . وكان بصحبته شرطيان ، أحدهما برتبة مساعد ، والثانى برتبة عريف

– إلى أين يا عبد الغفار ؟

فاجأه الضابط بسؤاله ، فأسرع عبد الغفار يقول :

– أشترى طعام اليوم ياحضرة الضابط . . تفضل ياحضرة الضابط !

ثم ابتسم للشرطى الذى يحمل رتبة مساعد :

– تفضل يا عم سلامة !

ثم للشرطى الآخر : « تفضل ياعم هارون ! »

ولكن الضابط ابتسم ابتسامة يعرفها عبد الغفار ، وهو يقول :

– لاتضيع الوقت يا عبد الغفار . . دع لامرأتك شراء طعام اليوم ، وتعال معنا !

تجاهل اللص معرفته بالغاية من زيارتهم المفاجئة ، وهو يقول للضابط :

– ماذا جرى ياحضرة الضابط ؟ أنا تُبت من زمن . . هل حدث منى شيء ؟

– لا شيء يا عبد الغفار . . عملية عرض بسيطة ، ولا داعى لكثرة الكلام .

– حاضر .

قالها اللص فى يأس وتسليم ، بعد أن أسلم لله أمره . . لقد حدث ما توقعه عندما قرأ نبأ عملية العرض ، من أن رجال الأمن لابد أن يكونوا فى طريقهم إليه ، ليكون ضمن الذين ستستعرضهم عائدة فى عرض

قانونى . . ولكنه لم يكن يتوقع مجيئهم بهذه السرعة ، قبل أن يلوذ بمخبأ خاص به ، لا يعرفه أحد سواه . . حتى زوجته لا تعرفه !

* * *

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم ذاته ، كانت عائدة بصحبة والدها ومحاميها — أستاذها الدكتور الريدى — يستأذنون للدخول على وكيل النائب العام المحقق .

رحب الرجل بهم ، وهو يقول : « سنبدأ عملية العرض فوراً ، فقد استدعينا معظم الخطرين الذين يحتمل أن يكون القاتل أحدهم ، وليس بينهم واحد ممن عرضت صورهم على الأستاذة عائدة بالأمس . . تفضل يادكتور ريدى . . تفضلى يا أستاذة عائدة . . تفضل يادكتور محمود ! »

وأشار إلى المقاعد القريبة من مكتبه ، وهو يدعوهم للجلوس ، فجلسوا .

أعاد فتح التحقيق ، وأملى الكاتب « الديباجة » المعروفة ، ثم أصدر أمره للشرطى الواقف بقرب الباب بأن ينهى للمقدم فاروق الحسينى أن الأستاذة عائدة فهمى قد حضرت لإجراء عملية العرض ، التى تقرر بالأمس إجراؤها بحضورها .

ولم تمض دقائق حتى دخل المقدم فاروق الحسينى ، يتبعه أحد عشر « نجماً » من نجوم الجريمة فى مدينة القاهرة ، يتبعهم أربعة مسلحون من رجال الشرطة الأشداء .

— فى الصف أنت وهو بسرعة ، قدام سيادة النائب . . تحرك !

قالها المقدم فاروق الحسيني للصوص ، الذين سيشكلون العرض أمام عائدة . . وفى ثوان كان الأحد عشر لصاً فى صف واحد منتظم .

استعرضهم النائب المحقق بنظرة لم تستغرق ثوانى ، ثم وجه حديثه إلى عائدة :

– أستاذة عائدة . . انظرى جيداً إلى هؤلاء الأشخاص . . هل ترين بينهم اللص الذى فتحت عينيك من الإغماء على وجهه ، ليلة الجريمة ؟

النائب لم يكن بحاجة لهذا السؤال ، لأن عينى عائدة قد التقطتا وجه اللص بين زملائه ، وهو يخطو من عتبة باب الغرفة إلى داخلها . . كما أحست بأن عينيه قد التقطتا وجهها ، فى لمحة تتساوى سرعة بسرعة الضوء . .

وعاد المحقق يقول لها فى هدوء :

– على مهلك يا أستاذة عائدة . . أنعمى النظر جيداً ، دون أن تظلمى نفسك أو تظلمى أحداً !

وراحت عائدة تستعرض وجوه الواقفين أمامها ، إلى أن التقت عيناها بعينيه . . وفى لمحة خاطفة ، عادت بخيالها إلى لحظة معينة من تلك الليلة المروعة . . ليلة الجريمة . . – لحظة أن كان اللص يتعجلها الهرب – من ذلك المسكن الملعون – وهو يقول لها :

– لا داعى للفزع . . لقد أرسلتنى العناية لأخلصك من هذا الحيوان ، فى اللحظة المناسبة قبل أن . .

– ومن يدرى . . ألا يجوز أن تقفى إلى جانبى يوما ما ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أو لك أن نتكهن به الساعة . .

وبذلك تردين لى ما تعتقدين أنه جميل قدمته لك . . كل شىء جائز يابنتى ، ولا تستبعدى شيئاً !

— مع السلامة . . والله يتولاك ويسترك !

هذا الرجل اللص — أو اللص الرجل بمعنى أصح — أنقذ عرضها من أن ينتهك ، وكان انتهاكه محتماً ، ذات ليلة حالكة السواد . . وبهذا جنّبها أن تعيش حياتها فى هوان ، يكللها بعار يظل عالقاً بها وباسمها وبسمعتها إلى نهاية العمر . .

فهل تخذله ؟ . . هل تتخلّى عنه ؟ . . هل تخيب رجاءه فيها ، وأمله فى أن تقف إلى جانبه ، كما وقف إلى جانبها فى أسوأ وأسود لحظات حياتها ؟

وبعد . .

فإن من قتله هذا اللص يستحق القتل ، بعد أن سفح أعراض عشرات السيدات والأبكار ، وكان من المقدّر لها أن تنضم — هى أيضاً — إلى قائمة من اعتدى على أعراضهن ، لولا هذا اللص الرجل ، الذى أنقذها فى اللحظة الأخيرة . . أنقذها بعد أن خاض معركة اضطر خلالها لأن يرتكب جريمة قتل ، وهو يعلم أن صديقاً لضحيته فى الطريق لزيارته ، بين لحظة وأخرى ، ليراها ، وليصافحها ، وليتعرّف عليها . . كأنها سلعة للفرجة !

وهل . . ؟

وبينما هى تدير كل هذه الأفكار فى رأسها ، سمعت النائب المحقق يسألها : « هيه يا أستاذة عائدة . . ؟ »

حولت عائدة عينيها عن صف اللصوص الواقفين أمامها ، ونظرت إلى النائب ، وهى تقول فى صوت هادئ النبرات :

– ليس بينهم يا سيادة النائب !
– متأكدة ؟
– متأكدة .
– هل تعيدين استعراضهم مرة أخرى ؟
– إذا شئت سيادتك . . ولكنى متأكدة من أنه ليس بينهم .
– حسن جداً

والتفت إلى المقدم فاروق الحسينى ، وقال له : « شكراً ياسيادة المقدم » .

وخرج الأحد عشر نجماً . .

ولم تفت عائدة لمحة خاطفة من عينى اللص ، وهو يستدير خارجاً .

وفهمت من هذه اللمحة الخاطفة الكثير . .

فقد كانت عيناه تقولان أكثر من الكثير . .

١٦

لم تمض أيام أخر ، حتى ظهر خبر صغير فى صفحات الحوادث بالصحف اليومية الثلاث . . والخبر يقول إن النيابة قد حفظت التحقيق فى جريمة مدينة المهندسين ، بعد أن ثبتت براءة الأستاذة عائدة فهمى - المعيدة بكلية الحقوق ، من تهمتى القتل والسرقة ، لعدم ثبوت الادلة ضدها . . كما قيدت الجناية ضد مجهول ، ، لعدم إمكان التوصل للفاعل الحقيقى .

فى اليوم ذاته ، يوم نشر الخبر ، أزّ الجرس فى مسكن أسرة عائدة . . وكانت تجلس مع والدتها وقرينة الدكتور الريدى ، التى تعلقت بالأم وبابنتها منذ أن دعيت لشهود عيد ميلاد عائدة ، فلم تتخلف يوماً عن زيارتهما ، وقضاء بعض الوقت معهما . . وكانت عائدة قد طلبت السماح لها بأسبوعين للراحة من عملها ، فقد كانت فى حال لا تسمح لها بأن تمارس حياتها العادية ، بعد التجربة المريرة التى مرت بها . .

كانت تحس إحساس من دخل بكل جسمه – عاريًا – خلية نحل تضم خمسين ألف نحلة . . مائة ألف نحلة . . فانقضت عليه جميعها ، تلسعه فى كل خلية من خلايا جلده . . فى كل مسام جلده ، إلى أن تخلص من الخلية بمعجزة . . ولكنه خرج حطاماً شائهاً .

أزّ الجرس فى ردهة المسكن ، ولم يمض قليل حتى جاءها أحد الخدم ، فأسر لها بكلمة فى أذنها ، فاستأذنت والدتها وقرينة أستاذها لتستكشف الأمر . .

بالباب رأت شرطيًّا يسألها : « السيدة الأستاذة عايدة محمود فهمى ؟ »

أجابته فى هدوء : « انا » .

– سيادتك ؟

– سيادتى .

– شخصيًّا ؟

– شخصيًّا .

– أنا آسف ياسيدتى ، فإننى أحمل لك ورقة لم أكن أحب أن أكون حاملها .

– أفصح من فضلك ؟

– وثيقة طلاقك من الأستاذ زكى الرفاعى .

ابتسمت ابتسامة هادئة ، وهى تقول :

– لا يهمك . . فقد كنت أنتظرها ، وقد أدهشنى أنها لم تصل إلا اليوم

– هل تسمحين بالتوقيع هنا بالاستلام ؟

– بكل تأكيد . . وشكراً .

وقعت باستلام وثيقة طلاقها . . وأنصرف الشرطى ، وأغلقت الباب وعادت إلى والدتها وضيفتهما ، قرينة الدكتور الريدى . .

* * *

سألتها والدتها الخبر ، فقدمت لها الوثيقة وهى تبتسم . . وما إن قرأتها الأم ، وانتهت من الإحاطة بمضمونها ، حتى مطت شفتها السفلى أسفاً واحتقاراً ، وهى تنظر لابنتها تبادلها ابتسامتها ، ثم مدت يدها بالوثيقة فقدمتها إلى قرينة الدكتور الريدى ، وهى تقول :

– لأوفر عليك عناء قراءة هذا الخط الردئ ياسميه هانم . . لقد طلق زكى عائدة فى قسم الشرطة ، وهذه وثيقة طلاقها .

أجابتها قرينة الدكتور الريدى ، دون أن تلمس الوثيقة بأصابعها :

– كما لا تصنع الفلوس إنساناً يا فوقية هانم ، كذلك لا يصنع العلم ولا الشهادات هذا الإنسان . . لقد أخبرنى الدكتور ريدى بتفاصيل الحديث الذى جرى بينه وبين زكى ، ليلة أن استدعت النيابة عائدة ، ونحن نحتفل بعيد ميلادها هنا .

سألتها عائدة – كمن لا تمانع فى أن تعرف . . ولكن ليس باهتمام

من تعلق أهمية كبرى على هذه المعرفة :

– ماذا قال الدكتور الريدى ياسمية هانم ؟

– تذكرين أن عمك الدكتور استأذن – أثناء التحقيق – ليحضر مذكرة ، كنت قد كتبتها بخطك عن هذه الجريمة ، أثناء الدراسة خلال السنة النهائية . .

– أذكر هذا جيداً . . وأذكر أن زكى استأذن المحقق ، وطلب من الدكتور الريدى أن يحمله معه .

– فى السيارة ، قال – قليل الأدب – لعمك الدكتور : « لم أكن أعرف أنها ممثلة بارعة إلا الليلة . . لقد اصطحبتها مع والدتها لتشاهد « فيلا » عثرت عليها لتسكنها ، دون أن أدرى أن هذه الفيللا هى بذاتها التى أرتكبت فيها الجريمة ، إلى أن صرح لى البواب بذلك . . فقلت لنفسى : لا بأس ، فإن أزمة المساكن أصعب من أن تدع لمن يريد أن يسكن حرية الاختيار . . باختصار شديد ، صحبتها – ووالدتها معنـا فدخلت « الفيللا » بأعصاب من حديد ، وتجولت بداخلها وكأنها تراها وتدخلها لأول مرة . . وبطبيعة الحال ، لم تكن لتستطيع أن تقبل سكناها ، بعد أن صارحتها بأن هذه « الفيللا » هى التى أرتكبت فيها الجريمة المشهورة ، حيث قتلت صاحبها إحدى النسوة من فئة معينة . . قلت لها هذا دون أن أدرى أنها كانت تعرفها قبل أن أعرفها ، ودخلتها قبل أن أدخلها ، وأن لها بين جدرانها مغامرتها المشينة المفزعة . . فظلت تتضاحك وتتعابث ، فمرة تقول لى إنها ستكتب لشركات السينما التى تخصصت فى إنتاج أفلام « فرانكشتين » لتخرج فيلماً – بين جدرانها – عن هذه الشخصية الأسطورية .

ومرة تقول – ونحن فى غرفة الجريمة – هيا بنا من هنا ، حتى لا تفاجأ بشبح الميت متسربلاً بأكفانه ، يسألنا ماذا نفعل هنا . . كيف أستطيع أن أعيش معها بعد كل ما عرفت عنها يا دكتور ريدى ؟ . . كيف أستطيع أن أعاشرها وأن أجعلها أما لأولادى ولها مثل هذه التجربة ؟ . . ومن يـدرى إن كـان لها تجارب سابقة ، وكم عدد هذه التجارب؟ ! . . ومن يـدرى أيضـاً ، ماذا تم فى هـذه التجـربـة ، وإلى أيـة نهاية انتهت ؟ . . مع كل هذا لا تتحرك ، ولا تهتز ، ولا تتأثر ! ! ! هذا كله سلوك ممثلة ، وانفعال ممثلة ، وأعصاب ممثلة . . وأنا لم أتزوج ممثلة ، لتمثل أمامى ما قد تضطرها الظروف للقيام بتمثيله من مواقف ، لتدارى سوأة أولتخفى عاراً . . أنا يادكتور ريدى لا أستطيع أن أعيش فى الزيف والكذب ، ولقد عشت معها هذه الشهور التى انقضت على زواجنا – وحتى اليوم – فى زيف وكذب متصلين مستمرين ، ولهذا فإنى سأطلقها . . غداً سأتوجه إلى قسم شرطة قصر النيل – قريباً من البيت – لأطلقها ، وسيتولى القسم تسليمها وثيقة طلاقها ، وأكون شاكراً لو تفضلت بأن ترسل لى متعلقاتى الخاصة ، على بيت أسرتى فى البغالة » . .

« ثم سكت ساكن البغالة قليلاً ، وعاد يقول :

– ما لنا نحن وسكان « جاردن سيتى » يا دكتور ريدى ؟ . . »

وسألتها عائدة : « ولم لم يخبرنى أستاذى الدكتور ريدى بكل هذا ياسمية هانم ؟ »

– أخبر والدك به ، مع رجاء منه بألا ينقله إليك إلا بعد وصول الوثيقة ، فربما تمهل زكى وراجع الأمر فيما بينه وبين نفسه – بعد أن

يهدأ ، فيعدل عن قراره الأحمق . ولكن . .

وأمسكت سمية هانم قليلاً ، لتستأنف حديثها :

– ولكن هناك ناس ياعائدة يابنتى ، يركلون بأقدامهم ما بين أيديهم من نِعَم .

ثم ابتسمت وهى تقول :

– على أية حال . . لقد أعجبتنى عبارة واحدة ، قالها : « مالنا نحن سكان البغالة بسكان جاردن سيتى ؟ » . .

* * *

غداً ينتهى الأسبوعان اللذان أمضتهما عائدة بعيدة عن عملها ، وبانتهائهما تنتهى إجازتها العارضة . .

بعد غد تعود إلى عملها ، معيدة بكلية الحقوق ، جامعة القاهرة . .

ولكن عائدة كانت قد عقدت النية على أمر ، قررت أن تسأل والديها رأيهما فى شأنه ، وهم حول مائدة العشاء . .

فى المساء دعاها والدها مع والدتها إلى عشاء خارج البيت ، وترك لهما اختيار المكان . . ولكن عائدة اتفقت مع أمها على أن يكون هذا العشاء فى شرفة الدار ، وهى بموقعها الفريد ، مطلة على النيل ، لا لايضاهيها جمالاً وهدوءاً سطح أرقى فنادق القاهرة . . وقد كانت الغلبة لرأيهما معاً ، فجمعتهم مائدة العشاء فى الشرفة

وهم يتناولون الفاكهة ، قالت عائدة :

– أبى . . أرجو أن أستأذنك فى أن أقدم استقالتى من عملى بكلية الحقوق .

ولم يكن الاقتراح مفاجئاً لوالد عائدة . .

كذلك ، لم يكن مفاجئاً لوالدتها . .

فكلاهما يعرف ابنته شديدة الكبرياء ، عالية الأنفة ، وإن كان تواضعها – فى مقام التواضع – مضرب الأمثال . .

ابتسم الوالد وهو يقدم لها تفاحة ، أزال عنها قشرتها بسكينة ، وهو يقول « لمَ ؟ »

تناولت منه التفاحة المقشورة مع كلمة شكر ، ثم قسمتها إلى ثلاثة أقسام ، قدمت لكل من والدتها ووالدها قسماً ، ووضعت القسم الثالث فى صحفتها ، وهى تقول :

– يخيل إلى أننى سأواجه فى الكلية – بعد كل ما جرى ونشر فى الصحف – متاعب قد لا تنتهى بسلام . . أنت تعرف – أبى – أن هناك كثيرين يعانون ضيق الأفق ، فتنقصهم النظرة المنصفة ، وهم بالتالى لا يملكون سلامة التقدير ، ولا يحسنون الإدراك ، ويتناولون الأمور تناولاً فجًّا ، فيسيئون إلى الغير بتصرف غير لائق ، أو بكلمة نابية ، أو بإشارة جارحة ، أو بنظرة ساخرة ، أو بابتسامة . . مجرد ابتسامة تقول ألف كلمة نابية ، وقد تجاوز النبوّ إلى البذاءة ، فما الذى يجبرنى على هذا ؟ . . إننى أترك الكلية باختيارى ، قبل أن أضطر لتركها لأننى لم أعد أستطيع البقاء بها .

أجابتها والدتها : « أنا شخصيًّا موافقة ، وأنت – بعد – لست بحاجة للعمل » .

– ليست مسألة حاجة يا ماما . . ولكنى أحس بسعادة كبيرة وأنا

أعمل . . وعندما أحس بأنني فقدت الإحساس بهذه السعادة ، فثق بأنني لن أتأخر لحظة عن تقديم استقالتي من عملي الجديد . .

تدخل والدها في الحديث فقال : « أنا أفهم عائدة فهما تامًّا . . »

– معنى هذا أنك تقرني . . ؟

– طبعاً أقرك ، ما دام هذا إحساسك ، ولا أملك ، ولا أستطيع – بل لا يجوز – أن أردك عن تصرف تجدين فيه راحتك .

– شكراً ياأبي .

وضحك الدكتور محمود وهو يقول :

– ما رأيك لو شرفت صيدلية « بابا » المتواضعة ، وجعلت من نفسك مديرة لها ؟

ضحكت الأم وإبنتها ، وقالت الأم : « والله . . أحسن فكرة ! »

– وأنا أتكلم جادًّا والله . . ادرسي العمل معي أياماً ياعائدة ، وستعي ذاكرتك أسماء الأدوية ، وأمكنتها من الأرفف ، في مدى أسابيع . . وأنا بحاجة لمن هي في علمك ومظهرك وشبابك ونشاطك . . وبعد ، فالصيدلية في النهاية لك ولماما ، ويجب أن تتعلمي كيف تديرينها من الآن . . صيدلية تدار إدارة ماهرة ، تدر الألوف كل شهر . . وليس من الضروري أن يكون مديرها صيدليًّا ، من حيث الناحية القانونية ، فإن الإدارة علم منفصل بذاته . .

وضعت عائدة أطراف أصابعها على شفتي والدها ، وهي تقول :

– « أرجوك . . لا تعد لمثل هذا القول مرة أخرى ، أو . . سأبكي ! »

وابتسم الأب وهو ينظر إلى ابنته بحنان يكاد يقطر دموعاً من عينيه ،

وهو يقول : « إذن ، ما هى مشروعاتك بعد الاستقالة ؟ »

– سأشتغل بالمحاماة مع أستاذى الدكتور الريدى . . سأبدأ معه محامية تحت التمرين . . وأظل فى مكتبه . . أكبر ، وأنجح ، وأصبح محامية كبيرة مشهورة . .

– هذه أجمل فكرة !

العبارة قالها الأب والأم معاً ، وكأن شفاههما كانت على موعد .

* * *

فى اليوم التالى ، أرسلت عائدة استقالتها إلى عميد كلية الحقوق . . . استقالة قصيرة ، مهذبة ، أنهتها بأنها لايمكن أن تنسى – مهما امتد بها العمر – السنوات الأربع التى أمضتها طالبة بكليتها العزيزة ، ثم الشهور التى عملتها بها فى وظيفة « معيد » .

ولم تكد تعرض على أستاذها رغبتها فى العمل معه ، حتى قام عن مقعده ، وأمسك بيدها ، وخرج بها من غرفة مكتبه ، متجهاً إلى غرفة أخرى مجاورة ، فتحها وأضاء نورها ، وإذا بها غرفة مكتب مؤثثة بأثاث فاخر ، أنيق . .

أشار بيده إلى محتويات الغرفة ، وهو يقول لعائدة !

– المحاماة مهنتك يا عائدة ، وهنا مكانك . . هذا مكتبك الذى ستتدرجين فيه ، من المرافعة أمام المحاكم الجزئية والجنح والمخالفات ، إلى أن تصلى للمرافعة أمام محكمة النقض ومجلس الدولة . .

نظرت له متهللة ، والابتسامة تطل من عينيها مضيئة ضاحكة . .

– صحيح ؟ يعنى . ستشرفنى بالعمل معك يا دكتور ؟

ربت كتفها بكفه فى حنان بالغ ، وهو يقول فى عتب رقيق :

– كيف تسألين هذا السؤال يا عائدة ؟ أنت ابنتى . . وأنا بحاجة لك ، أنت بالذات ، لأننى لا يمكننى أن أطمئن لغيرك كما أطمئن لك . . ومن الغد سأصحبك لتحضرى معى مرافعة حاسمة ، وفاصلة ، فى قضية تهريب كبرى . . وأنا على ثقة بأنك ستكونين خير عون لى .

– لا أعرف كيف أشكرك يا دكتور . .

– تعالى نطلب الدكتور محمود وفوقية هانم ، لننهى لهما هذا النبأ السعيد . . إنك قبلت أن تشرفى عملك الدكتور الريدى بالعمل معه . . كما نطلب أيضاً « سمية » لننهى لها النبأ ذاته . . ومن الغد تقدمى بطلب انضمامك عضواً بنقابة المحامين .

١٧

عائدة سعيدة بعملها الجديد . . لم تكن تدرى أن مهنة المحاماة يمكن أن تكون هكذا . . رحلة ممتعة ، أخاذة ، إلى الانطلاق ، تتجدد صورها يوما بعد يوم ، على هذا النحو المثير الذى يذكى فى النفس الطموح والأمل والتطلع إلى أرحب الآفاق . .

بدأ أستاذها يدربها على تنظيم القضايا ، وفهرسة وثائق ومستندات كل قضية بالأرقام فى ملفها الخاص بها ، كما بدأ يصطحبها معه إلى المحاكم التى يترافع أمامها فى أخطر القضايا ، فكانت – دائماً – خلفه كظله . .

حتى إذا أراد أن يعزز ما يقول بمستند رسمي ، كانت يدها ممدودة نحوه ، ليأخذ منها المستند ويقدمه لرئيس الهيئة ، وهو واثق بأنه يقدم المستند الصحيح . .

لم تخطئ مرة ، ولم تخذله مرة ، ولم تسبب له الحرج مرة . . ولم تعطه الفرصة ليندم على اعتماده عليها ، فى مهنته الخطيرة ، مرة . . كانت دائماً « حاضرة » ، صاحية ، واعية ، يقظة ، مفتوحة العينين ، مرهفة الأذنين . . وقد لفتت الأنظار إليها بكل هذه اليقظة الحارة ، فلم تكن تفوتها شاردة . .

وأحبت عملها أكثر . . فقد أعطاها أستاذها أكثر من فرصة ، فأحال إليها القضايا التى يسمح لها بتمثيل المتهمين فيها أمام المحاكم الجزئية ومحاكم الجنح والمخالفات ، فلم تخسر قضية واحدة . . .

وبدأ أستاذها يكلفها بتحضير القضايا التى سيترافع فيها ، أمام محاكم الجنايات أو النقض أو مجلس الدولة . . تحضرها له مشفوعة – كل منها – بمذكرة وافية ، مدروسة ، مع إبداء رأيها القانونى ، وكانت فى أول عهدها بهذه العملية – عملية التحضير – تستشعر حرجًا بالغاً من إبداء رأيها فى أية قضية ، بعد أن تنتهى من دراستها ، ولكنه خلصها من هذا الإحساس بالحرج ، عندما قال لها :

– بالعكس يا عائدة ، فأى محام – مهما كان كبيراً – بحاجة دائمة إلى رأى أى زميل من زملائه ، ولو كان أحدث منه فى ممارسة المهنة . . إنه – على أقل تقدير – يستنير بهذا الرأى الآخر . . قد لا يأخذ به ، ولكنه قد يكون سكة تقوده إلى الطريق الصحيحة للمرافعة . . فلا تتحرجى أبدا من إبداء رأيك وتسجيله ، فمن الجائز أيضاً أن أجد ثغرة فى هذا الرأى ، فتكون

الفرصة متاحة لى لأصحح لك . . وبالتالى تكون متاحة لك لتستزيدى علماً وخبرة . .

وكان رأيه صوابا . .

الشهور تمر . .

وهى تعود كل يوم من مكتبها إلى بيتها مرتين ، ظهراً وليلاً ، تقود سيارتها الصغيرة . سعيدة خفيفة نشطة ، لتحكى لوالدها ولوالدتها كل ما مر بها طوال اليوم بفترتيه : من قابلت ؟ . . من حدثت ؟ . . فيم ترافعت ؟ . . أغرب ما صادفها ومن الذى صادفها . . .

كانت تقص كل هذا على والديها ، كتلميذة صغيرة التحقت حديثاً بالمدرسة الابتدائية ، فإذابها تسرع – بمجرد عودتها من المدرسة – لتحكى لهما ما مر بها طول يومها المدرسى ، وهى سعيدة بإشراكهما معها فى كل متاعبها ومسراتها جميعاً . .

حتى إذا كان صباح أحد الأيام ، ولم يكن لديها من القضايا ما يدعوها للذهاب إلى المحكمة . . كذلك كان أستاذها عاكفاً – فى حجرة مكتبه – على مراجعة مذكرة أعدتها له ، خاصة بإحدى القضايا الكبرى ، التى ستنظر أمام محكمة أمن الدولة . . فإنه أيضاً لم يكن لديه ما يضطره للتوجه إلى المحكمة .

وعندما فتحت عائدة إحدى صحف الصباح ، فوجئت بصورته أمامها . . صورة اللص !

لم تستطع أن تقاوم رعدة ، سرت من قلبها إلى بقية أعضاء جسمها ،

حتى أطراف أصابع قدميها . قرأت أول ما قرأت ، الكلمات القليلة المكتوبة تحت صورته : « اللص الخطر عبد الغفار سرور » .

إنها لم تكن تعرف اسمه حتى هذه اللحظة . . اسمه عبد الغفار سرور.

وراحت تقرأ العناوين الكبيرة ، المكتوبة بالخط العريض :

* أغرب جرائم السطو فى القاهرة .

* اللص الخطير « عبد الغفار سرور » يهشم ويشوّه وجوه أربعة لصوص ، عندما وضعته الأقدار فى مواجهتهم .

* اللص الخطير تسلل إلى المسكن ، الذى قرر سرقته ، فى نفس الليلة التى قرر اللصوص الأربعة الشركاء سرقة المنزل ذاته . .

* ماذا يفعل اللصوص بعضهم ببعض ، إذا تعارضت مصالحهم ؟

* وفاة أحد اللصوص الأربعة ، بعد نقله إلى المستشفى بساعات . وتوجيه تهمة قتله إلى اللص الخطير .

قرأت عائدة التحقيق الصحفى ، الذى أفاضت فى وصفه الصحف ، ثم أمعنت النظر فى صورة عبد الغفار . . بجبينه العريض ، وحاجبيه السوداوين الغزيرين ، فوق عينين تشتعلان ذكاء ويقظة . . بملامحه حادة التقاطيع صارمتها ، كمن لم تطف البسمة بوجهه منذ ولدته أمه ، وحتى اللحظة التى التقطوا فيها هذه الصورة المنشورة فى الصحف .

ولم تستطع أن تمنع شفتيها من أن تنفرجا عن ابتسامة ، وهى تقول لنفسها :

— مرة ثانية ، لن أتخلى عنك . . ولن تكون وحدك !

ثم بصوت خافت ، سمعته أذناها :

– على أية حال . . إنه متهم كأى متهم . ومن الممكن جداً أن يلجأ مكتبنا . ليتولى الدكتور الزيدى قضيته والدفاع عنه .

وأخذت الصحيفة . وقامت متجهة إلى حجرة أستاذها ، فدقت بابها مستأذنة عليه . ودخلت . .

– أهلا يا عايدة !

– أهلا بك يا دكتور !

– تعالى . . اجلسى . فقد كنت بحاجة لمن ينتزعنى من قراءة هذه المذكرة انتزاعاً ، لأرتاح قليلاً . . فإذا بك تنقذيننى من نفسى ! ابتسمت وهى تقول : « الراحة أثناء دراسة القضايا ، أمر لا بد منه ، حتى لا يشوّش الإرهاق أذهاننا !

سألها وهو يبتسم : « ما رأيك فى قدح قهوة ؟ . . فرصة نتحدث خلالها معا . . راحة ربع ساعة ، ثم أعود بعدها لاستكمال دراسة هذه المذكرة الممتعة » .

ابتسمت وهى ترد تحيته لمجهودها : « شكراً يا دكتور . . ولا بأس أبدا بقدح من قهوة البن الفاخر الذى تعده سمية هانم » .

رفع الدكتور الزيدى سماعة التليفون الداخلى ، وأوصى بقدحين من القهوة ، ثم رد السماعة إلى مكانها ، وهو يرحب بتلميذته الغالية .

سألته عائدة ، وهى تقدم له الصحيفة مفتوحة على الصفحة التى تتوسطها صورة اللص ، وهى تقول : « هل قرأت نبأ هذا الحادث يا دكتور ؟ »

ضحك الدكتور الزيدى من قلبه ، وهو يقول :

– قرأت الحادث بكل تفصيلاته ، وأضحكنى اللص عبد الغفار

بسلوكه الغريب ، وبخفة دمه . فعندما فوجئ بأربعة من اللصوص يدخلون المسكن ، وهو بداخله يتأهب للسرقة ، عرض عليهم أن يتعاونوا معا ، وأن يقتسم معهم ما سيسرقون ، قسمة الحق . . لكل منهم الخمس تطبيقاً لمبدأ الاشتراكية . . بمفهومه الخطأ طبعاً ! »

ضحكت عائدة ، وهى تقول :

— إنه فهم الاشتراكية بمعنى الاشتراك فى المسروقات . .

— كالكثيرين !

وضحك الدكتور الريدى وهو يقول :

— ومع ذلك ، فقد رفض اللصوص الأربعة ، وظنوا أنفسهم — وهم أربعة — يستطيعون أكله — وهو واحد صحيح — وراح يحتال على إقناعهم دون جدوى . . وكان أجمل ما فى أقواله أنه يحاول أن يتفق معهم كأى « جنتلمان » . . هكذا الكلمة منقولة عنه فى الصحف ، كما لاشك أنك قرأتها ، واستلفتت نظرك .

— استلفتت نظرى حقيقة ، وضحكت . . .

— ومع ذلك رفضوا ، ظنًّا منهم أنهم سيرهبونه بعددهم ... فما كان منه إلا أن لبس القبضة الحديدية فى أصابعه ، واكتسحهم . . وسمع الجيران ضجة المعركة ، فقبض عليهم جميعاً .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، قال الدكتور الريدى بعدها لتلميذته :

— لص خفيف الدم ، بلا أدنى شك . . ولكن ما الذى أثار اهتمامك بهذا الحادث بالذات ، فدعاك لسؤالى إن كنت قد قرأت تفصيلاته ؟

أطرقت عائدة قليلا ، ثم رفعت رأسها ، وواجهت بعينيها الصافيتين

العميقتين عيني أستاذها ، وهي تقول : « إنه . . هو . . يا دكتور ! »

ولم يفهم الدكتور الريدى شيئاً من هذه الكلمات الثلاث . . « إنه هو يا دكتور » . .

ولم يكد يسألها : « هو من . . يا عائدة ؟ » . . حتى دخل أحد العاملين فى خدمة المكتب ، يحمل قدحى قهوة على صينية من الفضة ، فقدم لعائدة أولاً ، ثم للدكتور . . ثم وضع الصينية وانصرف ، وأغلق الباب .

وعاد الدكتور الريدى يسأل تلميذته باهتمام :

– هو من يا عائدة ؟ . . أفصحى ، أرجوك !

– لص جريمة مدينة المهندسين ، الذى قتل عبد الحميد لطفى . بعد أن حال بينه وبين الاعتداء علىّ ، فى اللحظة الأخيرة .

هب الدكتور الريدى واقفا خلف مكتبه ، وهو يقول بصوت حاول جاهدا ألا يتجاوز باب الغرفة : « لا يمكن ! »

هزت عائدة رأسها تأكيداً ، وهى تقول :

– بل يمكن . . فهو هو . . إنه هو ، ولست بحاجة للتدقيق فى صورته ، أو لإعادة النظر فيها حتى أؤكد أنه هو . . ولم أكن أعرف اسمه حتى اليوم . . لم أكن أعرف أن اسمه عبد الغفار سرور .

وعاد الدكتور الريدى ليجلس على مقعده ، وقد حار فى ما يقول . . وأمسك بالصحيفة ، وراح يدقق النظر فى صورة اللص . .

الصورة واضحة تماماً . . ولم يكن قد أمعن فيها النظر ، عندما قرأ تفاصيل الجريمة فى الصباح . . وثبت عينيه على الصورة ، ليتأكد مما إذا كان قد رأى صاحبها من قبل . . ولكن عائدة سبقته إلى إعلان ما يريد أن

يتأكد من صحته :

– لقد كان واحداً ممن استعرضتهم منذ شهور ، عندما استدعتنى النيابة وحققت معى ، ثم طلبت منى أن أخرج القاتل من بين زملائه . . إذا تعرفت عليه .

وأعاد الدكتور الريدى النظر إلى صورة اللص ، ثم رفع عينيه عنها ، وقال لعائدة : « تذكرته . . نعم ، كان واحداً منهم بكل تأكيد . . »

ثم بعد لحظة صمت قصيرة ، قصيرة جداً ، وكأنه تذكر شيئاً مهماً وخطيراً . . ! « ولكن . . ولكنك يا عائدة . . ؟ ! »

– أعرف ما ستقول يا دكتور .

– إنك قلت إنه ليس بينهم .

– لم أكن أستطيع أن أفعل يا دكتور ، فلا قلبي يعيننى ، ولا لسانى يطاوعنى ، ولا أصبعى تستطيع أن ترتفع لتشير إليه فأقول هذا هو اللص الذى كان فى غرفة الجريمة ليلة حدوثها . . هذا الرجل يا دكتور – وإن كان لصاً –وقف بجانبي وقفة أب ، ولا أقل من وقفة أب ، برغم أنه لا يمكن أن يجاوز الثانية أو الثالثة والثلاثين . . لقد أنقذنى – فى اللحظة الأخيرة – من اعتداء وحشى كان سيقع علىّ لا محالة ، فصان عرضى ، وارتكب فى فى سبيل هذا جريمة قتل . . ولم يتخلّ عنى بعد ذلك ليتركنى حتى يهرب بجلده . .ولكنه قال لى بالحرف الواحد : « إنى أريد أن أؤمن طريقك وسلامتك ، حتى تخرجى من هذا المكان ، ولو كلفنى هذا حياتى . . ومن يدرى ؟ . . ألا يجوز أن تقفى بجانبي يوماً ، تحت أى ظرف من الظروف ، مما لا يمكن لى أو لك أن نتكهن به الساعة وبذلك تردين لى ما تعتقدين

أنه جميل قدمته ؟ . . كل شيء جائز يا بنتى، ولا تستبعدى شيئاً ! . . »

« ولم يتركنى بعد ذلك . بل صحبنى من الباب الخلفى للفيلا . وسار بى وسط الخلاء . فوق أرض وعرة ، ممسكاً بيدى حتى يجنبنى عثرات الطريق فى الظلام ، إلى أن وصل بى إلى منطقة النور والعمران . . ومع ذلك لم يتركنى ،بل ظل واقفاً بمبعدة منى – تحت شجرة – حتى اطمأن إلى أننى ركبت إحدى السيارات وانطلقت بى . .

« فهل كنت أملك أن أتخلى عنه بعد ذلك ، فأقابل صنيعه بالجحود والنكران ؟ . .ولماذا ؟ لأنه قتل رجلا يستحق القتل حقيقة ، بعد أن أهدر أعراض عشرات السيدات والبنات غدراً ! ! . . قد لا يكون كلامى هذا سليما من الناحية القانونية ، وهذا صحيح أسلم به . . ولكن من يطلب منى أن أدل رجال التحقيق عليه ، بعد كل ما فعل من أجلى ، فإنه يحمل الطبيعة الإنسانية فوق ما تطيق . . إلا مع الأنذال ، ولم تكن النذالة من طبعى يوماً ! »

ورفعت كوب الماء إلى فمها فبللت شفتيها على حافته ، ثم ردته إلى سطح المكتب ، ثم تناولت قدح القهوة الذى أمامها ، فرشفت منه رشفات ، بينما كان الدكتور الريدى يدير كلماتها فى رأسه ، إلى أن ابتسم وهو ينظر لها كما ينظر الأب إلى طفل فى السادسة أو السابعة من أولاده ، أتى تلقائيًا عملاً كبيراً لا يقدر عليه إلا الرجال . . أشرف الرجال . . فسألته :

– هل كنت أستطيع أن أدلهم عليه يا دكتور بعد كل ما قدم لى ؟

– بالطبع لا .

قالها الدكتور الريدى بلا أى تردد ، فقالت عائدة :

– هو لص . . ولا يمكن أن يفلت من عيون رجال المباحث ، وإن

تأخروا فى الوصول إليه ، فإنهم حتماً سيصلون يوماً ، لا محالة . . ولكن أن يكون هذا الوصول عن طريق ، فهذا ما لن يكون قط !

واتسعت ابتسامة الدكتور الريدى ، وهو يداعب تلميذته بلغة التقاضى :

– طلبات الدفاع ؟

– أن تتفضل مشكوراً بالدفاع عنه !

– وأنا لن أخيب رجاءه فيك . . والقضية – كما يبدو – شيقة ، ومثيرة للمحامى الذى يحب البحث ، ويسعده أن ينجح فى القضايا الصعبة ، التى لا يمكن لأحد أن يتنبأ بالحكم الذى سيصدره القاضى فيها . . الطريق الرحبة المضيئة ، يستطيع . أى إنسان أن يسير فيها . . أما الدهاليز الملتوية المتشعبة ، والدروب الوعرة المعتمة ، فلا يستطيع كل إنسان أن يقتحمها ليصل إلى غايتها . .

– إذن أتقدم ، بعد إذنك ، بطلب للنيابة لمقابلته ؟

– جهزى الطلب ، وسأتقدم به باسمى ، بصفتى وكيلا عن المتهم عبد الغفار سرور .

١٨

عندما استقبلهما عبد الغفار فى زنزانته الخاصة – باعتباره من المجرمين الخطرين – راح يفرك عينيه بكفيه ، كأنه لا يستطيع أن يصدق . . وأطال النظر إلى عايدة وهو يقول لها : « سيادتك ؟ ! »

ابتسمت عائدة فى مودة وعطف ظاهرين ، وهى تقول : « سيادتى يا عبد الغفار » .

– عرفت اسمى ؟

– من الصحف التى نشرت الحادث . كنت أجهله حتى يوم أمس .

– أنا أيضاً عرفت اسمك من الصحف ، منذ شهور .

– وقتها كنت معيدة فى كلية الحقوق . . أما اليوم ، فأنا محامية .

– محامية ؟ !

– كنت لا أزال طالبة فى السنة النهائية ، ليلة الحادث ، ثم تخرجت بعدها بشهور .

نظر لها ، وكأن الذكرى تقيمه وتقعده ، إلى أن قال :

– لن أنسى لك موقفك يوم العرض القانونى . . ألم أقل لك ليلة الجريمة إنك قد تقفين إلى جانبى يوما ، لتردى لى ما تعتقدين أنه دين ، أو جميل قدمته لك ؟

أجابته فى هدوء :

– وها أنا ذى أزورك اليوم ، ومعى أستاذى الدكتور نور الدين الريدى المحامى ، وهو من أكبر محامى البلد – إن لم يكن أكبرهم وشيخهم جميعاً – وقد تطوع ليتولى قضيتك والدفاع عنك .

نظر عبد الغفار إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– يا سعادة الدكتور . . أقسم لك أننى لم أقتله ، أنا صادق . . فأنا رجل . . ولو قتلته لاعترفت بقتله . . إنى مثلا على استعداد لأن أعترف بقتل « المجحوم » – فى ستين داهية – الذى كان سيعتدى على الأستاذة عايدة ،

لأنى قتلته فعلا . . أعترف على الأقل لأنظف ثوبها مما لا يزال عالقاً به من شبهات . . ولكن هذا الصرصور الذى قتل فى حادث السرقة الأخير ، هذا الأسبوع ، لم أقتله ! »

ابتسم الدكتور الريدى وقد هزته شخصية هذا اللص الغريب ، فسأله بلطف :

– مَن الذى قتله إذن يا عبد الغفار ؟ . . صوّرلى الحادث كما وقع ، لأستطيع أن أحسن الدفاع عنك .

– لقد فوجئت بدخولهم وأنا داخل المسكن . . هم أربعة ، وأنا واحد . . وعندما حاولت الاتفاق معهم ، اتفاق « جنتلمان » ، وتنازلت لهم عن أربعة أخماس العملية – مع أن العرف بيننا يحتّم عليهم الانسحاب ، ماداموا دخلوا المسكن فوجدوا زميلا سبقهم إليه – لم يستجيبوا لى . . واندفع أحدهم يريد أن يطعننى بمطواة قرن الغزال ، ولكنى لا أؤكل سهلا يا سعادة الدكتور . . واستطعت أن أفوّت عليه الطعنة ، وأسرعت بالقبضة الحديدية بين أصابعى ، فكنستهم . .

– ثم ؟

– أحدهم ، وهو كما بدالى رئيسهم ، أمسك بتمثال من النحاس ، قائم على خزانة ملابس منخفضة – ذات أدراج كثيرة – وحاول أن يهوى به فوق رأسى . . ولكنى تفاديت الضربة ، وإذا به يُصيب زميله ، الذى سقط بلا حراك . . ضربة التمثال فلقت رأسه ، فغرق فى دمه . . أنا لا أحب القتل يا سعادة الدكتور . . (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله قتلها) صدق الله العظيم ، ولا ألجأ إليه إلا للضرورة ، التى لا أرى معها مفرًّا من

الالتجاء إليه مثل حالة الأستاذة عائدة مثلا . . فقد كنت أدافع عنها وعن نفسي . . كانت معركة حياة أو موت . . وصدقني يا سعادة الدكتور ، وحياة بنتي رشا . . ما قتلت فى حياتى إلا هذا الحلوف « عبد الحميد لطفى » . قتلته مضطراً !

– أصدقك يا عبد الغفار .

– وكان الجيران قد أحسّوا بالمعركة فكسروا الباب وحاصرونا ، وبينهم – من السكان – بعض رجال الشرطة ، من الرتب العالية . . تعرفت عليهم من نظرة . . ولم أشأ للعملية أن تتسع أكثر ، فسلّمت نفسى وأنا واثق بأننى برىء من تهمة القتل ، ولا ينقصنى إلا المحامى « العُقْدةَ » لكى يظهر براءتى من هذه التهمة . . .

الابتسامة لا تزال على شفتى الدكتور الريدى ، وهو يسأله :

– والسرقة يا عبد الغفار ؟

ابتسم عبد الغفار ، وهو يقول :

– هذه لا مناقشة فيها . . شروع فى سرقة ثابت ولا مفر منه ، لأننى كنت داخل المسكن فعلا ، أما القتل فلا . . ومع ذلك فنحن لم نسرق شيئا . . إنه شروع فى سرقة لم تتم . .

ومرت لحظة صمت قصيرة ، سأله بعدها الدكتور الريدى :

– قل لى يا عبد الغفار . .

– خادمك يا دكتور.

– أستغفر الله يا رجل

– خادمك والله العظيم . . وخادم الأستاذة عائدة لآخر قطرة من

دمى ، كما قلت لها ليلة الجريمة . .

– حسن جداً . . ولكن هل أنت جادّ حقيقة ، فيما أعلنته الآن ؟

– بخصوص ماذا ؟

– إنك على استعداد لأن تعترف بقتل عبد الحميد لطفى ، لتنظف ثوب الأستاذه عائده كما قلت . .

– رقبتى يا دكتور .

– بجدّ ؟

– الرجل بكلمته يا دكتور . . وحتما سيصلون إلىّ يوماً ، فلم لا يكون هذا اليوم ، اليوم قبل الغد . . على الأقل ، إذا سلّمت نفسى بنفسى ، واعترفت ، ربما كان هذا من دواعي تخفيف العقوبة ، مع مرافعة سعادتك .

– يعنى مستعد لأن تقدّم طلباً للنيابة الآن ، تقول فيه إن عندك أقوالا تريد أن تدلى بها فى جريمة مدينة المهندسين . .

– على أتم استعداد . . والآن ، إذا شئت سعادتك .

ونظر الدكتور الريدى نظرة طويلة لهذه الشخصية الفريدة كما راحت عائدة تتأمله من جديد . . ولم تستطع أن تمنع طبقة رقيقة من الدموع من أن تلمع فى عينيها ، لحظها عبد الغفار ، فقال لها :

– رقبتى يا ست هانم فداء دمعة من هذه الدموع . . ولا يهمك . أنا رجل وأعجبك والله العظيم ، والرجل يُربط من لسانه .

ثم التفت إلى الدكتور الريدى ، وقال له :

– اتخذ إجراءاتك يا سعادة الدكتور ، وأنا جاهز . . وكله باق لابنتى « رشا » وأمها . . وأنا لا أريد أن أظل مطارداً بتهمة قتل إلى نهاية عمرى .

لم يضيع الدكتور الريدى دقيقة من وقته ، فأسرع باتخاذ كافة الإجراءات الواجب اتخاذها، بوصفه وكيلاً عن المتهم عبد الغفار سرور.

وعندما بدئ التحقيق معه ، وقف إلى جانبه بهذه الصفة ، ليتابع إجاباته عن أسئلة المحقق كلمة بكلمة ، حتى لا يزل لسانه . .

ولما انتهت جلسة التحقيق ، قال الدكتور الريدى للمحقق ، إن المتهم يريد أن يعترف بجريمة ارتكبها منذ نحو عامين أو أكثر قليلا ، وحُفظ التحقيق فيها لعدم العثور على الفاعل . والجريمة التى يريد المتهم أن يعترف بارتكابها ، اشتهرت باسم جريمة مدينة المهندسين ، والمجنى عليه فيها الثرى « عبد الحميد لطفى »

وفتح النائب المحقق تحقيقاً جديداً . .

* * *

ومن جديد دارت مطابع الصحف ، لتظهر صباح اليوم التالى حاملة أكثر العناوين إثارة وتشويقًا للقراءة .

* القاتل الحقيقى فى جريمة مدينة المهندسين ، يعترف بجريمته بعد أكثر من سنتين .

* اعترافات مذهلة يمليها القاتل فى جلسة التحقيق .

* المجنى عليه كان يأتى أعمالاً يندى لها جبين الأخلاق ، بعد أن يخدر ضحاياه ، وكاد يفتك بإحدى طالبات كلية الحقوق ، لولا أن تقدم اللص فأنقذها .

* القاتل يقول : أنا لص ، ولكنى أشرف منه ألف مرة ، ولو لم أقتله لقتله غيرى .

* غاظني منه أنه يحمل مصحفاً صغيراً فى علبة من الذهب ، بينما يرتكب أخس الأفعال بلا وازع من ضمير .

* إنى أعترف بارتكاب هذه الجريمة ، لأغسل وأنظف ثوب سيدة كريمة فضلى ، من شوائب قد تكون عالقة به . .

وعشرات الصور تغطى صحف الصباح اليومية الثلاث . . عبد الغفار يتكلم ، أو يشير بيديه ، أو ترتسم على وجهه الانفعالات المختلفة من هدوء أو ثورة . . من رضى أو غضب . . من تأن أو اندفاع .

ولكنه لم يبتسم أبدا . . لم تُلتقط له صورة واحدة وهو يبتسم ، وكأنما البسمة لم تطف بشفتيه منذ ولدته أمه وحتى هذه اللحظات ، التى بدأ يحس معها أنه يواجه مصيره المحتوم . .

ولم يفت كل صحيفة – وهى تفرد صفحة كاملة لاعترافات اللص المثيرة – أن تنشر صورة للمجنى عليه عبد الحميد لطفى . . ثم صورة عريضة من صور عائدة ، تم اختيارها بعناية شديدة ، فكانت تبدو فى كل من هذه الصور – فى مختلف الصحف الثلاث – كما لو كانت أميرة تنظر إلى متاهات أفق عريض ، بعيد ، مجهول ، تحاول أن تستشفّ فى كلماته ما يترصدها به من أحداث ، قد تهبط بها عن عرش إمارتها إلى القاع

الصور كانت قد التقطت لها ليلة أن استدعتها النيابة للتحقيق معها ، ثم أفرجت عنها بضمان والدها . . لتعود فى اليوم التالى لكى تجرى النيابة أمامها عرضا حيا لمجموعة من أخطر لصوص القاهرة ، لتخرج من بينهم القاتل ، إذا كان بينهم .

والتمس الدكتور الريدى نظر القضيتين فى جلسة واحدة ، فأجيب التماسه . وحددت الجلسة ، التى غصت بأعداد من مختلف الطبقات . من جموع الناس ، لم يكن لقاعة المحكمة اى عهد بها من قبل .

وكانت « توحة » ضمن الحاضرين . . وكان الدكتور محمود . . والد عائدة ، ضمن الحاضرين أيضاً .

حضرت « توحة » – زوجة عبد الغفار فى ثوب بسيط نظيف . وكانت ابنتها « رشا » تمسك بيدها ، لا تدرى معنى لما يجرى حولها . . إنها الآن فى الخامسة من عمرها . . كل ما تدريه أنها شاهدت أباها خلف قضبان من الحديد ، وأنه عندما أراد أن يقبلها ، ركع على ركبتيه ، وقبلها من بين هذه القضبان ، وهى لا تدرى لماذا .

وحضر الدكتور محمود . . والد عائدة – ليرى هذا اللص الذى دافع عن ابنته دفاع المستميت ، وحال دون وحش بشرى من أن يعتدى عليها أبشع اعتداء ، وارتكب فى سبيل ذلك جريمة قتل . . حضر الدكتور محمود ليرى هذا اللص ، ليصافحه ، وليقدم له تحية شكر وعرفان ، ولينحنى أمام إنسانيته . . إنه لص ، هذا صحيح . . ولكنه فى نظر والد الفتاة التى صان عرضها إنسان تربع قمة الإنسانية . .

ترافع الدكتور الريدى عن موكله – المتهم عبد الغفار سرور – فى القضيتين : قضية السرقة التى وُجهت إليه معها تهمة قتل أحد اللصوص ، ثم قضية مقتل الثرى عبد الحميد لطفى .

ورفعت الجلسة للمداولة ، ثم انعقدت بعد ثلاث ساعات ، للنطق بالأحكام . . وكان نصيب عبد الغفار منها :

البراءة من تهمة قتل اللص . . والسجن لمدة سنة عن تهمة الشروع في السرقة . . ثم السجن مع الأشغال الشاقة – لمدة خمس عشرة سنة – لقتله الثرى عبد الحميد لطفى

* * *

ورفعت الجلسة . . وبارح الجميع القاعة ، ما عدا خمسة : الدكتور الريدى ، وعائدة ، ووالدها ، ونوحه . . ثم رشا .

واقتربوا من القفص . .

وكان عبد الغفار البادئ بالكلام . . نظر إلى الدكتور الريدى ، وهو يقول :

– سعادة الدكتور . . لا أعرف كيف أشكرك . . لقد كنت أنتظر السجن المؤبد فى كل من القضيتين ، فإذا بك – بحول الله – تختصر الخمسين سنة إلى ست عشرة . . وإذا هدانى الله فى السجن – وسيهدينى بإذنه – ستصبح الست عشرة سنة اثنتى عشرة فقط .

ابتسم الدكتور الريدى ، وهو يقول : « يا عبد الغفار . . » .

– خادمك يا سعادة الدكتور .

– برغم حياتك التى اختارتها الظروف لك ، فإنى أراك شديد الإيمان بالله .

– ونِعْم بالله .

– فإذا ظللت متمسكاً بإيمانك هذا ، فثق بأن الله سيكرمك فى مقبل أيامك .

– أنا أسلمت أمرى لله ، الذى أمدّنى بقوة من عنده لكى أعترف بجريمة مدينة المهندسين ، حتى تتخلص الأستاذة عائدة نهائيًا من القلق

الذى لازمها أكثر من عامين ، ولأتخلص أنا أيضاً من مطاردة لا مفر من مواجهة نهايتها يوماً ما . .

أجابته عائدة ، فى ابتسامتها الوديعة :

– شكراً يا عبد الغفار . . شكراً من كل قلبي .

ولمحت دمعة تبرق فى عينيه ، فاتسعت ابتسامتها فى وجهه أكثر ، وهى تقول عاتبة : « وبعد يا عبد الغفار . . اهكذا تضعف ؟ »

واسرع فالتقط الطبقة اللامعة من مقلتيه ، قبل أن تنساب دموعاً على خديه . وهو يقول :

– أنا لايهمنى شخصى ، ولا تهمنى نفسى يا ست هانم ، ولكن . . ولكن . . :

واختنق صوته ، فخاف أن تخونه دموعه ، فأمسك . . وأشار إلى زوجته وإلى طفلته . . وأدركت عائدة ما كان يريد أن يقول . .

والدها أيضاً أدرك ما أدركته ابنته ، فتدخل فى الحديث قائلا : « يا عبد الغفار . . » .

واسرعت عائدة تقول :

– هذا والدى يا عبد الغفار . . الدكتور محمود فهمى . .

– أهلا يا سعادة الدكتور . . ربنا يحفظك لها ، ويحميها لك !

– لقد حضرت اليوم خصيصاً لاراك ، لأصافحك ، لأحييك . . لأشكرك من كل قلبي ، فإنك عرضت حياتك للهلاك من أجل إبنتى الوحيدة ، وارتكبت جريمة قتل – كنت فى غنى عن ارتكابها – لتنقذ عرضها من هوان الاغتصاب . . يا أخ عبد الغفار ، هذه يدى أصافحك . .

ومد عبد الغفار يده من داخل القضبان ، ليصافح اليد الممدودة له من خارجها . وهو يقول :

– أنالم أفعل إلا ما يفعله أى رجل شريف . .

– أما عن ورشا ، فإنهما ستخرجان من هذه القاعة إلى بيتى رأساً لتقيما معى ومع ابنتى ووالدتها ، ولن تتركا البيت بعد ذلك أبدا .

– ربنا يكرمك يا سعادة الدكتور .

وابتسم الدكتور ، وهو ينظر إلى الطفلة الجميلة ويسأل :

– رشا عمرها الآن . . ؟

– خمسة أعوام تقريباً .

– سألحقها بالمدرسة من مطلع الموسم الدراسى القادم .

وهتفت توحة ، فى صوت تشيع الفرحة فى نبراته : « مدرسة ؟ ؟ »

– وعند ما يخرج عبد الغفار من السجن – بعد اثنتى عشرة سنة بإذن الله – سيحتفل معنا بنجاحها فى الثانوية العامة . . وسألحقها بكلية الطب يا توحة ، لنراها جميعاً بعد ستة أعوام طبيبة ، فلا يناديك أحد إلا بقوله يا أم الدكتورة !

وبكى عبد الغفار . . بكى وهمّ بخطف يد الدكتور محمود ليقبلها ، ولكن هذا سحبها منه بلطف ، وهو يقول :

– أستغفر الله يا عبد الغفار .

– ربنا يعمر بيتك يا سعادة الدكتور ، ويحفظ لك الأستاذة عايدة والست الهانم الكبيرة والدتها . . ربنا يسترك ، ويخلف عليك ، ولا يريك ضيما قط !

والتقطت عائدة طرف الحديث من والدها ، فقالت لعبد الغفار :

– وبعد ، فإنك سترانا – توحة ورشا وأنا – فى كل موعد زيارة ، وكأنك لم تفترق عنهما . . سنزورك كل أسبوع . . وسترى أننى سأكون عند وعدى .

ثم لحظة صمت ، أضافت بعدها :

– ومن يدرى يا عبد الغفار . .فالمناسبات كثيرة ، حيث يعلن الإفراج عمن أمضى نصف المدة المحكوم عليه بها ، إذا كان حسن السلوك خلالها .

– يارب ياست هانم . . يارب !

واختم الدكتور محمود الحديث بقوله :

– بقيت نقطة مهمة وأخيرة يا عبد الغفار . . إنك يوم تخرج من السجن ، ستجد عملا شريفا ينتظرك ، تبدأ ممارسته فى نفس اليوم . . يوم خروجك . و . . ونتركك الآن بخير وفى أمان الله !

وابتسم عبد الغفار . . ابتسم ابتسامة رضى واقتناع وقناعة ، وهو يقول للدكتور محمود :

– أرحتنى يا سعادة الدكتور . . طمأنت قلبى يا أستاذة عائدة . . مادامت توحة ورشا ستكونان فى رعايتكم بعد الله .

ثم نظر للدكتور الريدى وهو يقول :

– اما سعادتك يا سعادة الدكتور ، فاعفنى إذا عجزت الكلمات عن الوفاء بالتعبير عن شكرى لسعادتك .

ونظر للجميع وهو يقول : « مع السلامه . . مع السلامة يا توجه . . مع السلامة يا رشا . . مع السلامة كلكم ! »

وانصرفوا . .

وبقى هو فى القفص مع بقية المحكوم عليهم ، ينتظرون جميعاً من سيقودونهم إلى السيارة التى تحملهم إلى السجن . .

١٩

الشهر نوفمبر . . أخذ الأيام العشرة الأولى من نوفمبر . . بعد محاكمة عبد الغفار وصدور الحكم عليه بنحو أربعة أشهر . .

عائدة جالسة فى مكتبها ، والساعة حول معصمها تشير إلى منتصف الثامنة مساء .

أستاذها الدكتور الريدى يمر بها – بغرفة مكتبها – كعادته ، ليسألها سؤاله التقليدى ، إذا كان سينصرف قبلها : إن كانت بحاجة لأى شىء ، فتشكر له عنايته واهتمامه ، فيحييها وينصرف ، وهى تقول له :

– إنى أنتظر سيارتى ، لأن ناقل السرعة[1] بحاجة لإصلاح ، وقد وعدنى الحاج إدريس بأن يحضرها لى بنفسه ، بعد أن يتم إصلاحه ، ووعدنى بأنه سيكون هنا قبل الثامنة . . ولهذا فأنا مضطرة لانتظاره .

ومرت دقائق . . عشر دقائق . . خمس عشرة دقيقة . .

وسمعت طرقاً على باب غرفتها ، فأذنت للطارق بالدخول . .

---

(١) ناقل السرعة هو « التفليتيس » فى السيارة – « معجم الفاظ الحضارة » : محمود تيمور.

كان أحد العاملين بالمكتب . . عم رضوان .

– أهلاً يا عم رضوان !

– أهلاً بسيادتك يا أستاذة عائدة . . هناك من يريد مقابلتك

– ألم يخبرك من يكون ؟

– اسمه زكى الرفاعى . . الأستاذ زكى الرفاعى .

* * *

ومرت لحظة صمت قصيرة ، أحست عائدة خلالها بأنها ترتفع ، وترتفع ، وترتفع ، حتى أصبحت تراه صغيراً ، صغيراً ، صغيراً . . وكلما أحست بارتفاعها أكثر ، ازداد صغراً وضآلة أكثر . . ثم نظرت إلى عم رضوان ، وقالت له فى هدوء وابتسامة على شفتيها :

– فليتفضل ياعم رضوان !

ووقفت خلف مكتبها قبل أن يدخل زوجها السابق ، فلما دخل صافحته بأدبها العالى ، والابتسامة ما زالت فوق شفتيها ، وقالت له :

– تفضل يا أستاذ زكى . . تفضل بالجلوس !

وجلست ، فجلس . .

– قهوة ، أوشراب من الثلاجة ؟

– شكراً .

– أهلا وسهلاً .

لم تسأله سبب الزيارة ، لأنها أرادت أن تترك له اختيار مدخل الحديث ، فقد كانت تعرف كل ما سيقوله . . قبل أن يقوله .

هو الذى فى زيارتها فيجب أن يبدأ – هو– حديثه .

سألها السؤالين الساذجين :

– كيف صحة الوالد ؟

– بخير .

– والوالدة ؟

– الحمد لله .

وعاد الصمت يعقد لسانه ، إلى أن وجد الكلمات ، فقال :

– فى الحقيقة يا أستاذة عائدة . . إننى جئت لك اليوم ، لأرجو منك أن يعود كل منا للآخر ، وأن نستأنف حياتنا معاً من جديد .

واجهته فى شجاعة ، ودون أن تهرب الابتسامة من قسمات وجهها : وقالت له فى أدب شديد :

– أستاذ زكى . . إننى آسفة أشد الأسف ، لأنك تسألنى ما لا أستطيع تحقيقه لك .

– ولِمَ ؟

– لم يعد أحدنا يصلح للآخر .

– إننا تعاشرنا شهوراً ، زوجين سعيدين . . فلم لا يصلح أحدنا للآخر ؟

– لأنك طلقتنى .

– كنتُ متسرعاً .

– هذا غير صحيح .

– غير صحيح ؟ !

– لو أنك كنت متسرعاً كما تقول ، لطلقتنى فى غرفة التحقيق ،

بعد أن سمعت ما ساءك من تفاصيل قصتى . . أو كنت خرجت من غرفة التحقيق إلى أقرب مأذون من مأذونى الشرع ، أوإلى أقرب قسم من أقسام الشرطة ، لتطلقنى هناك كما فعلت . . فى مثل هذه الحال أستطيع أن ألتمس لك عذراً ، فأقول إنه فعلها فى لحظة انفعال وتسرع . . أما أن تنتظر أسبوعين ، ثم أتلقى وثيقة طلاق ، يسلمنى إياها أحد رجال الشرطة ، فمعنى هذا أنك لم تتسرع . . بل إنك فكرت تفكيراً طويلاً ، متأنياً ، اقتنعت بعده بأنك لا تصلح لى ، أوأننى لا أصلح لك . . وفى هذه الحال ، لا أرى – بكل أسف – أى مبرر أوضرورة لأن نستأنف حياتنا معاً من جديد .

وأحس زكي بأنه يتضاءل أمامها . . كان منطقها صحيحاً ، وعادلاً ، ومنصفاً . . وقبل أن يحاول رد حجتها بضدها ، استأنفت هى حديثها فقالت :

– إنك اعتقدت ، أوشككت ، مجرد شك – ولو للحظة واحدة ، ولا أقول لأكثر من عامين ، منذ ليلة التحقيق معى – أننى فتاة سهلة ، يمكن أن تعبث ، وأن يصل عبثها إلى درجة التفريط . . وأنت لم تفكر فى زيارتى لتعرض على أن أعود إليك ، أوتعود إلىّ ، إلا بعد أن ضرب اللص عبد الغفار سرورمثل الرجولة ، فبلغ بمروءته وشجاعته ذرى الإنسانية وقممها . .

« رجل حر طليق . . يجرى ، ويمرح ، ويسرق ، وينفق ، ويعبد زوجته وطفلته الواحدة . . وقضيته ميؤوس تماماً من العثور على الجانى فيها ، ومع ذلك لم يتردد ، عندما التقى بى ، فى أن يعترف بأنه هو هذا الجانى الميؤوس من الوصول إليه . . ليضحى بحريته . . ليسجن اثنتى عشرة سنة ، إذا افترضنا الإفراج عنه بعد انقضاء ثلاثة أرباع المدة المحكوم

بها عليه . . من أجل ماذا ؟

« من أجل أن ينظف ثوب سيدة « كريمة فضلى » — كما وصفنى — مما قد يكون عالقاً به من شوائب . . فهل تظننى مستطيعة أن أعود إليك ، بعد كل هذا ؟

« إنك لم تشرفنى بهذه الزيارة ، إلا بعد أن اعترف عبد الغفار بكل شيء ، فصدقته . . أما أنا فإنك لم تصدقنى ، كنت أتمنى أن تفعل . . أن تقف إلى جانبي كما وقف أبي وأستاذى الدكتور الريدى . . بل وكما وقف لص لا تربطه بي أية صلة . . كنت أتمنى أن تدافع عنى ، أن تحمينى ، أن تعلن على الجميع أن زوجتك ضحية ، وأنها مجنى عليها وليست جانية . . ولكنك لم تفعل . . كل ما فعلته أنك طلقتنى فى قسم الشرطة دون أن تقدر أننى عشت هذه الشهور الطويلة أتعذب . . أتمزق . . أتفتت . . كنت كمن تمشى عارية — أو فى القليل — حافية على الشوك .

ومرت لحظة صمت هائلة ، أحس زكى الرفاعى خلالها بأنه لم يعد ينتمى إلى هذا العالم . . لقد سلقته عائدة فى حوض ماء مغلى ، كما تُسلق الدجاجة بريشها ، تهيئه لتعريتها من هذا الريش . . فقد أحس زكى بأن عائدة قد عرته تماماً ،

وعادت تقول ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة هادئة :

— أنا آسفة يا أستاذ زكى . . لم يكن فى نيتى أن أُسْمِعك كل ما أسمعتك ، عندما أخبرنى عم رضوان أنك تطلب مقابلتى ، ولكن . . لا أدرى ماذا جرى لى . . فأرجو منك أن تقبل اعتذارى .

رفع زكى إليها عينين ذابلتين متعبتين ، كما لو أنه لم ينم منذ طلقها

وحتى هذه اللحظة . . وهمس فى ضعف :

— يعنى . . لا أمل ؟ ؟

— أنا آسفة يا أستاذ زكى . . لم يعد كل منا يصلح للآخر . . طريقك غير طريقى ، كما أن طريقى غير طريقك .

ووقف زكى فوقفت . . ومد يده يصافحها فصافحته بأدبها العالى المألوف . . ومشت معه إلى باب حجرة مكتبها ، وهى تقول له : « مع السلامة ! » .

وعادت إلى مكتبها . . ونظرت إلى الساعة حول معصمها ، وهى تقول لنفسها :

— تأخر الحاج إدريس . . وأريد أن أعود إلى البيت .

ولم تكد تنتهى عبارتها ، حتى أز جرس التليفون ، فرفعت السماعة ، وإذا بالحاج إدريس يقول لها إن سيارتها لن يتم إصلاحها الليلة ، فهناك قطعة لا مفر من إبدالها بجديدة ، ولن يتيسر له هذا إلا صباح اليوم التالى .

وبارحت مكتبها ، وألقت إلى عم رضوان ووكيل الدكتور الريدى والضارب على الآلة الكاتبة بتحية المساء ، وهبطت فى المصعد ، ومنه إلى الطريق . . إلى شارع قصر النيل .

ووقفت تنتظر سيارة تحملها إلى البيت . .

السيارات تمضى تحمل الراكبين ، أو خالية ، ولكن سائقيها لا يقفون لمن يشير إليهم بالتوقف .

ومرت سيارة . . سيارتان . . ثلاث سيارات . . أربع . . خمس . . عشر . .

وهى واقفة فى مكانها ، أمام باب المبنى الذى يضم مكتبها . . مكتب

أستاذها الدكتور الريدى .

وانقضى ثلث ساعة . .

فجأة ، وقفت أمامها سيارة فاخرة ، فتح سائقها بابها ، وهو يقول فى أدب مفرط :

– الآنسة ، لوسمحت لى بحملها إلى حيث تريد ، سأعتبر هذا شرفاً عظيماً تمنحنى إياه . .

وابتسمت . . المصيبة أنه لا يدرى لماذا ابتسمت ! . .

مصيبة أكبر . . أنه فسر ابتسامتها بأنها تشجعه . . بأن صاحبة هذه الابتسامة ممن ينتظرنه ، أو ينتظرن غيره ، أوغيره ، أوغيره . فأضاف :

– إن العثور على تاكسي فى مثل هذه الساعة ، وفى هذا الشارع بالذات ، يعتبر من المستحيلات . . فتفضلى . . سأحملك إلى حيث تريدين . . ولو قلت إلى الإسكندرية !

أحنت رأسها وهى تقول له : « شكراً » .

– سيدتى . . يعزّ علىّ وقوفك فى مثل هذه الساعة ، وقد أقبل الليل .

– شكراً مرة أخرى .

وعاد يلح : « ولكن . . . »

قاطعته وهى تقول فى حزم يفرض شخصيتها فرضاً :

– أرجوك ، لا تلحّ وانصرف لحالك بسلام . . وإلا . .

واكتشف أنها ليست ممن ينتظرنه أو ينتظرن غيره ، فابتعد بسيارته ، وهو يسأل نفسه :

– هذا غريب . . غريب جداً . . فيمَ اذن كانت ابتسامتها المشجعة ،

لحظة أن وقفت ودعوتها للركوب ؟ !

وانطلق بسيارته متجهاً إلى ميدان التحرير . .

ومرت إحدى السيارات . وكانت خالية . ولكن سائقها لم يتوقف لها عندما أشارت له . .

بعدها مباشرة ، رأت سيارة مقبلة . فأشارت لسائقها . فوقف لها . وتقدمت ، وفتحت الباب ، وركبت . . ولم يفتها أن تلتقط رقم السيارة المكتوب على بابها ، لتحفظه فى ذاكرتها . . وابتسمت وهى تقول فى همس :

– الله يمسيك بالخير يا عبد الغفار ويفكّ عنك !

فقد تذكرت نصيحته لها ليلة الجريمة .

ونكس السائق راية العداد وهى تقول له :

– جاردن سيتى من فضلك !

وابتعدت بها السيارة .

تمت

الخميس ١٩ يونيه ١٩٧٥ – الأحد ٢٤ أغسطس ١٩٧٥

رقم الإيداع	١٩٨٢/٣٤٢٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧–٠٢–٠١٠٠–٦

١/٨٢/١٢٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

